مؤثرات الحضارة الاسلامية في السودان الغربي منذ القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري

صالح ابو دياك*

ملخص

تناول البحث طرق انتشار الاسلام في السودان الغربي، مبيناً أهمية التجارة في ذلك لما لها من ارتباط وثيق بين التاجر والمستهلك إلى جانب أساليبها القائمة على الاحتكاك المباشر بينهما، وما ينجم عن هذه الأساليب من قيم أخلاقية كالصدق والأمانة، ولين العريكة وحسن المعاملة، والانضباط في مزاولة الشعائر والأحكام، مما لفت نظر الافريقي وجعله يربط بين هذا السلوك والعقيدة، فيقبل عليها إلى جانب الاختلاط الاجتماعي، وامتلاك القوة الاقتصادية، وحماية الافريقي بإسلامه من سلب ماله وسبيه، إلى جانب تحسين وسائل عيشه، وتنظيم حياته، فبدلاً من الحياة البدائية والعري، أصبح يعمل على فلاحة الأرض واستثمارها، وتصنيع منتوجاتها، الأمر الذي أدى إلى نمو الصناعات، وتطوير الأساليب الزراعية، فتحسن وضعه المعيشي، وتفنن في العمران، واستقدم المهندسين الذين قاموا ببناء القصور، ودور العلم، والمساجد، ودخلت مفردات من اللغة العربية إلى اللغات المحلية، وما زالت موجودة ومؤثرة في لغاتهم حتى اليوم، هذا إلى جانب سيطرة الاسلام على الوجدان، فما زال الناس مسلمين إلى يومنا هذا.

مقدمة

من الواضح ان مصادر التاريخ الافريقي لجنوب الصحراء الكبرى قليلة، نظراً لتأخر انتشار الحضارة في هذا الجزء من العالم، ولعل انتشار الاسلام في هذه الديار كان من أهم التأثيرات الحضارية بسكانه.

فابن حوقل من مؤرخي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تحدث عن بلاد السودان الغربي وعن ساحل افريقيا الشرقي وكانت معلوماته جيدة من حيث كميتها قياساً بغيرها، لكنها كانت مبعثرة، تحدث عن سكان السودان الغربي فقال: "... انهم مهملون لا يستحقون إفراد ممالكهم بما ذكرت به سائر الممالك"[1]. والمتتبع للمصادر التي تحدثت عنهم من حيث تسلسلها الزمني يجد في مقدمة أصحابها، الاصطخري الذي عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري، والذي بدأ تجواله في العالم الاسلامي في رمضان سنة ٣٣١هـ/٩٤٣م، وقد شمل نشاطه افريقيا الشمالية، وأما حديثه عن السودان الغربي؛ فقد جاء مقتضباً ونقلاً، وكانت مادة حديثه مختصة بالمسالك المؤدية إليه دون التعرض إلى النواحي الاقتصادية والادارية فيه فجاءت معلوماته مقتصرة على النواحي الجغرافية.

وممن كتب عن هذه البلاد في القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) أبو عبيد البكري (ت ٤٨١هـ/١٠٩٤م) في كتابه المسالك الذي أمدنا بمعلومات على جانب كبير من الأهمية في النواحي السياسية والادارية، وكانت كتاباته أول محاولة جادة وضعت مسحاً لأرض السودان والمناطق المجاورة له. أما الادريسي، فقد أورد في كتابه نزهة المشتاق؛ معلومات لا بأس بها عن طبيعة السودان، وطبيعة أرضه، ولكن معلوماته قليلة ومشتتة.

ومن الكتب المهمة عن السودان الغربي، كتاب المسالك لابن فضل الله العمري الذي عاش في القرن الثامن وسماه باسم المسالك، والثاني جعله في خمسة عشر باباً وجعله في ذكر الممالك.

وفي نهاية القرن المذكور، برز مؤلف قيم بعنوان: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" للرحالة ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٣م) قدم لنا في هذا الكتاب مادة حسنة ذات قيمة تاريخية جيدة.

ومن المصادر المهمة في نهاية هذا القرن تاريخ ابن خلدون، الذي تحدث عن السودان الغربي في المجلد السادس شمل فيه النواحي السياسية وشيئاً قليلاً عن النواحي الادارية.

ومن المصادر الهامة التي تحدثت عن أهمية الذهب وعن طرق استخراجه وفنيات صنعه، كتاب الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة لأبي يوسف الحكيم الذي ألفه في حوالي سنة ٧٤٩هـ/١٣٦٥م. ومن الكتب البارزة التي ألفت عن السودان الغربي في القرن العاشر الهجري، كتاب (وصف افريقية) للحسن الوزاني الملقب بـ (ليون الافريقي) الذي دون فيه جملة أحداث ورحلات جغرافية كتبت باللغة الايطالية وأهداه لجروم كاستور سنة ١٥٥٥م، ثم ترجم إلى اللغة الفرنسية، وفي سنة ١٦٠٠م ظهرت الترجمة الانجليزية، وبعدها ترجم إلى اللغة الاسبانية والهولندية، وأخيراً إلى العربية سنة ١٩٧١م، ومما يعطي الكتاب قيمة واعتباراً، أن مؤلفه دون ما شاهده بنفسه أثناء تجواله في أرض السودان الغربي، وقد قسم كتابه إلى تسعة أقسام سمي كل قسم باسم كتاب، ومن المعلومات التي

* استاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، اربد، الأردن، تاريخ استلام البحث ١٩٩٥/٨/٦ وتاريخ قبوله ١٨/٣/١٩٩٦.

(1) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٩.

يجهلها قوله بان العرب عرفوا السودان الغربي بعد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وهذا قول خاطئ لانهم عرفوه منذ القرن الثاني للهجرة، وكان لهم دعاة نذروا أنفسهم لخدمة الاسلام ونشره في هذا الركن وفي غيره من الأماكن في افريقيا. ومن أهم ما ألف عن بلاد السودان الغربي بقلم افريقي، مؤلف السعدي (ت ١٦٥٥م) الموسوم بـ (تاريخ السودان) الذي شمل ثمانية وثلاثين فصلاً سمي كل واحد منهما (بالباب) ابتدأها بالحديث عن سنغاي وأنهاها بالفصل الأخير الذي تحدث فيه عن تاريخ السودان الغربي من سنة ١٠٦٣ـ١٠٦٥م، تحدث فيه عن التنظيمات العسكرية والادارية لأرض السودان، وهكذا يبدو أن السعدي لم يقدم مادة تاريخية، عن النواحي الاقتصادية.

أما ما سماه الجغرافيون والمؤرخون بالسودان الغربي، فهو يشمل الأراضي التي تقع جنوب الصحراء الافريقية الكبرى الممتدة من البحر الأحمر شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً[2]، ويشمل اليوم حوض السنغال، وغينيا، فولتا العليا، والنيجر الأوسط[3].

وتميز سكانه قبل القرن الخامس للهجرة الحادي عشر للميلاد بالبساطة والبدائية، وبقلة التخصص في الوظيفة الاجتماعية، والسياسية، والحكم، والديانة، والآداب، يتضح ذلك من استقرائنا للمصادر التاريخية، حيث نجد السكان متفرقين ليس لديهم دول منظمة على أسس عقائدية، ولم يكن لديهم معتقد واحد وشريعة يراجعونها، فقد عبدوا أرواح الأجداد، وتماثيل وأنصاباً، وعمد بعضهم إلى تعظيم الحيوانات وتقديسها، إضافة إلى شيوع الاعتقاد بالسحر والعرافة والعمل بهما، علماً بأن البعض منهم كان لديه بعض الأفكار البسيطة عن المجوسية واليهودية[4].

أما العادات، فلم تكن أفضل من المعتقدات، فقد تفشى بينهم العري والتعري، وكانوا قليلاً ما يستقرون، إضافة إلى أنهم كانوا يتناكحون بغير صدقات[5]، ويعتقدون كثيراً بالسحر ويؤمنون به، وبعد أن استقر الاسلام في نفوسهم، عمل على تغيير افكارهم وعاداتهم بما يتفق والشريعة الاسلامية، وكان دخوله إلى هذه المنطقة، عن طريق التجارة والهجرة الجماعية وغيرهما من الطرق، وكانت القوافل المتجهة إلى السودان الغربي تسير باتجاهين شمالي جنوبي، وشرقي غربي، حاملة معها بضائع البحر المتوسط.

ولعل أقدم احتكاك بين المسلمين وأهله يعود إلى حملة عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية سنة ١١٦هـ/٧٣٤م بقيادة حبيب بن أبي عبده الفهري التي وصلت حملته إلى السوس الأقصى وأرض السودان حوالي عام ١٢٠هـ/٧٣٧م[6]، وتكللت بالانتصار، الأمر الذي أدى إلى هجرات المسلمين من المغرب ومصر مما أدى إلى سيطرتهم على التجارة وطرقها وأصبحوا وسيلة وصل بين السودان ومناطقهم وعزز وجودهم مكانتهم الدينية.

وكان ازدهار الحركة التجارية بين مالي وما جاورها من العوامل التي ساعدت على ازدهار الحركة العلمية في مالي، ساعدها على ذلك ما تمتعت به مدينة تنبكت التي أسسها المسلمون في القرن الخامس الهجري، ولذا قال عنها السعدي: "ما دنستها عبادة أوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن"[7].

ويرجع بناؤها إلى عهد الملثمين الطوارق الذين هاجروا من الصحراء إلى السودان الغربي، واتخذوها في بادئ الأمر مستودعاً لبضائعهم، وعهدوا بحراستها إلى عبد يدعى تينبوتو فعرفت باسمه ولفظها العرب تونبكتو[8]، وسرعان ما تحولت إلى مركز تجاري يؤمها التجار والعلماء في كل مكان وخاصة المغرب ومصر والأندلس، وبقيت تحت حكم المرابطين إلى أن خضعت لمنسي موسى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م وهو الذي بنى جامع سنكري باشراف المهندس المعماري أبو اسحق ابراهيم الساحلي الشاعر الاندلسي الذي رافقه عند عودته لبلاده[9]، وشاهد ابن بطوطة أثناء زيارته للمدينة سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م ضريحه، وضريح سراج الدين بن الكويك الذي قدم إلى المدينة لاستيفاء ديونه من حاكمها منسي موسى الذي استغلها منه أثناء زيارته لبيت الله الحرام؛ لتأدية فريضة الحج[10].

وكان أغلب سكانها في ذلك الوقت من قبيلة مسوفة أهل اللثام، وبقيت خاضعة لعشيرة مغشرف المرابطية أربعين عاماً، ومن أشهر حكامها محمد نادي الذي ظل يحكمها فترة طويلة، وكان يشرف على ادارتها ويجمع الضرائب من أهلها، يأخذ ثلثها، ويبعث الثلثين إلى الزعيم الأكبر المرابطي المقيم في الصحراء واسمه (عقيل أجملوال)، لكن حكمه لم يدم طويلاً، فقد تعرضت المدينة إلى احتلال سن علي حاكم منفي الذي أساء معاملة أهلها مما أدى إلى تدميرها ثقافياً وعمرانياً، حيث هاجر عدد كبير من علمائها إلى مدينة ولاته الواقعة إلى الشمال منها[11]، على بعد مائة ميل من المحيط، والتي سكنتها القبائل البربرية التي تعرف

---

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٤-٢٥.
Triningnam, Islam in West Africa, 10.
(٣) Diric, Lepays des Zinds, 11.
(٤) البكري، المغرب، ص ١٧٥-١٧٦.
(٥) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٦.

(٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ج١، ص ٥١.
(٧) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢١.
(٨) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٩.
(٩) كعت، تاريخ الفتاش، ص ١٢١.
(١٠) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٢-٦٧٥.
(١١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣-١٢٤.
كعت، الفتاش، ص ٤٨.

بولاته والتي ترجع بأرومتها إلى قبيلة مسوفة الصنهاجية، وتعد المدينة صلة وصل بين المراكز التجارية المغربية والسودانية، وموقعها الآن إلى الجنوب من موريتانيا(١٢).

ونظراً لأهمية موقع تنبكت، فقد استمرت الحركة الثقافية في النمو، وهذا ما أشار إليه الحسن الوزاني الذي زارها سنة ٩١٧هـ/١٥١٢م، وشاهد فيها عدداً من العلماء والقضاة والأئمة وصلتهم القوية بحاكم المدينة، وما يتمتعون به من رغد العيش، إلى جانب تجارة الكتب المخطوطة التي يجنون منها أرباحاً طائلة(١٣)، مما يدلنا على اهتمام أهلها واهتمام من يقصدها بشراء الكتب واقتنائها، وبقي اشعاعها العلمي مستمراً عن طريق جامعها الكبير الذي بناه السلطان منسي موسى، وجامع سنكري المنسوب للمرأة التي بنته(١٤). وهذان الجامعان تحولا فيما بعد إلى جامعتين اسلاميتين تدرسان العلوم الاسلامية المختلفة، خاصة جامع سنكري الذي يشبه جامع الأزهر في تراثه ومكانته العلمية، وقد التحق به عدد من طلاب العلم من مختلف الأماكن في السودان الغربي كانوا يدرسون عدداً من الكتب في الفقه منها: الموطأ، ومؤلفات القاضي عياض، ومؤلفات سحنون، وشرع ابن القاسم، وخليل، ومؤلفات المغيلي، إلى جانب كتب الحديث والنحو والمنطق واللغة(١٥)، مما يدلنا على الصلة العلمية الوثيقة ما بين المغرب والغرب السوداني، وقد أثمرت الرسالة العلمية الثقافية، فقام أهل البلاد بالتدريس بعد تكوينهم العلمي في المغرب والمشرق، منهم الفقيه الكاتب موسى الذي أرسله السلطان منسي ببعثة علمية إلى فاس، ثم إلى مدينة تنبكت وبعد تكوينه العلمي وتمكنه الفقهي أخذ يقضي بين الناس ويؤمهم في الجامع الكبير مدة أربعين عاماً(١٦)، والفقيه صديق بن محمد تعلي الذي مارس مهنته مدة أربعة وعشرين عاماً، والفقيه كداد الفلاني الذي عمل اثنى عشر عاماً(١٧)، والفقيه اندغمحمد بن الفقيه المختار النحوي، والفقيه سنتاغوبن الهادي الوداني المعاصر للمؤرخ عبد الرحمن السعدي(١٨)، وظلت تنبكت زمناً طويلاً تستقبل العلماء من الحجاز والاندلس ومصر والمغرب، كما تستقبل وفود الطلاب من النيجر وامارات الهوسا والبرنووكانم، ينهلون من مراكزها العلمية ثم يعودون إلى بلادهم ويستقرون فيها.

والف ابنها البار أحمد بابا كتاباً سماه "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" ضمنه تراجم عدد كبير من علماء تنبكت وفقهائها، وجعله ذيلاً لكتاب ابن فرحون (الديباج المذهب) ومن خلال استعراض هذا الكتاب نجد أن هناك أسراً علمية توارث افرادها العلم على مدى فترات متعددة كأسرة أقيت وغيرها من الأسر الأخرى(١٩).

جني، وقد ورد اختلاف في اسمها، فالسعدي يوردها بهذا الاسم، ومحمود كعت الفتاس يوردها بدون ياء(٢٠).

ومهما يكن من أمر فإنها تعد المركز الثاني في السودان الغربي، وتقع على نهر باني أحد فروع نهر النيجر إلى الجنوب من تنبكت على مسيرة مائتي ميل، وقد بنيت في أواسط القرن الثاني للهجرة، ويعود الفضل في بنائها للصنهاجيين الذي أرادوها مركزاً لنشر الاسلام، وقد سيطر عليها الزنوج من قبائل النونو والبوزو، وتحولوا من الوثنية إلى الاسلام باختلاطهم مع المسلمين المغاربة الذين قدموا عن الطريق الصحراوي متجهين نحو الجنوب ونزلوا فيها واندمجوا مع أهلها(٢١).

وشاءت الأقدار أن يسلم ملكها واسمه (كنبر) في القرن الثالث للهجرة، وكان له الفضل في جلب العلماء ليجعل منها مركزاً ينافس تنبكت.

ونظراً لموقعها التجاري الهام، فقد أصبح أهلها من أغنى سكان المغرب السوداني(٢٢)، مما أدى إلى ازدهار الحياة الثقافية والعلمية فيها، فكان أول مسجد ومركز علمي المسجد الجامع الذي أنشأه السلطان (كنبر) بعد اسلامه حيث أمر بهدم قصره وتحويله إلى مسجد عرف بجامع جني(٢٣)، ولا تزال أطلاله قائمة إلى الآن. وقد أشرف على بنائه رجل عربي اسمه (ملوم ادريس) الذي أدخل الفن المعماري العربي للمدينة، وعلم أهلها فنون البناء وزخرفته، وأصبحت من المدن الهامة؛ لكثرة ما كانت تجتنيه من أرباح(٢٤).

وكانت العملة المتداولة فيها الذهب، وكان للعلماء مكانة خاصة فقد كانوا يسكنون مع الملك في حي خاص، وقد تميز علماؤها عن غيرهم باللثام الأبيض(٢٥)، ولعلهم اقتبسوا هذه العادة من الملثمين (بربر صنهاجة)، وكان من أبرزهم الفقيه مورمغ كنكي، والفقيه محمد بن أبي بكر بغبغ الذي تولى القضاء فيها في عهد الاسكيا اسحق بن محمد (٩٤٦-٩٥٦هـ) وكان شجاعاً كما تدل على ذلك مواقفه مع الاسكيا حاكم المدينة(٢٦)، واستمرت الشعلة فيها تضيء

(١٢) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٥.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٥٤١.

(١٤) السعدي، تاريخ السودان، ص ٥٦، ٦٢.

(١٥) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٣.

(١٦) المرجع نفسه، ص ٥٧.

(١٧) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(١٨) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(١٩) المرجع نفسه، ص ٦٢.

(٢٠) السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٨-٢٩، كعت، الفتاش، ص ٨٨.

(٢١) المغربي، بداية الحكم المغربي، ص ٨٥٠.

(٢٢) ابن بطوطة، تحفة الانظار، ص ٦٧٤.

(٢٣) السعدي، تاريخ السودان، ص ١٣.

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية، ج٧، ص ١٤٦.

(٢٥) الوزان، وصف افريقية، ص ٥٣٧-٥٣٨.

(٢٦) كعت، الفتاش، ص ٨٨؛ السعدي، تاريخ السودان، ص ١٩.

على من حولها، حتى اطفأها الفرنسيون الذي قاموا باحتلالها ونهب ثرواتها العلمية من الكتب والمخطوطات[٢٧]، وفي المقابل كان للمدن المغربية رسالتها الثقافية الهامة في ايصال اللغة العربية والعقيدة الاسلامية إلى هذه الديار عن طريق العلماء، وكان من أبرز هذه المراكز في المغرب الأقصى المتاخم للسودان الغربي مدينة فاس التي تأسست سنة ١٩٢هـ/٧٢٦م زمن ادريس الثاني، وبنت أم البنين فاطمة بنت محمد الفهري في عهد يحيى بن محمد بن ادريس سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م جامع القرويين فيها[٢٨]، الذي أصبح فيما بعد جامعة اعتبرت من أقدم وأبرز الجامعات في العالم، قصدها طلاب العلم من المغرب والأندلس وافريقية لتلقي علوم التفسير والحديث والفقه والأصول، وعلم العربية من لغة وشعر وأدب، ولما اضمحلت مدينتا القيروان وقرطبة، استقبلت فاس الفارين من علمائها وغيرهم، ففي خلال الحروب التنصيرية في الاندلس هاجر ثمانية آلاف أسرة من مسلمي الأندلس إلى مدينة فاس[٢٩].

وأخذت مدينة فاس تفقد أهميتها غير أنها بقيت تحوي ستة وثلاثين ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والمعارف ينهل منها طلبة العلم في مختلف التخصصات، وقد أدت دورها الثقافي والعلمي في الغرب السوداني وما زالت حتى الآن، تقوم بتأدية رسالتها عن طريق جامعتها (القرويين).

مراكش[٣٠]، وكانت تعد من أبرز المراكز العلمية المشهورة في المغرب الأقصى، قصدها طلاب العلم من جميع انحاء العالم الإسلامي، عامة والسودان الغربي خاصة لقربها منه، وقد حدث أن نُفي علماء مملكة سنغاي إلى المغرب الأقصى وعملوا في التدريس، وكان من أبرز علمائها الفقيه أحمد بابا التنبكتي، فكانت حلقة الدرس التي يعقدها بجامع الشرفاء بمراكش من أكبر الحلقات، وتتلمذ على يديه قضاة المغرب وعلماؤها، ناهيك عن طلابها.

ويمكن القول ان مراكش أصبحت بوتقة للعلم فيها علماء المغرب مع علماء السودان الغربي وانتجوا لنا ثقافة وعلماً مشتركاً أخذ يشع على المغرب والسودان الغربي[٣١]، وإلى جانب اللقاءات والرحلات العلمية، انطلقت هجرات بشرية من البلاد العربية والمغربية منذ الفتح الاسلامي لمصر والمغرب واستقرت في هذه الديار، الأمر الذي ساعد على نشر اللغة والدين، بين الملوك والرعية بفعل الاحتكاك، فها هو ابن حوقل يذكر عن ملك اودغست تيبوتان أنه[٣٢] كان

(٢٧) قداح، افريقية الغربية، ص ١٤٣.

(٢٨) أبو دياك، الوجيز، ص ٧٤.

(٢٩) Meakin, The Land of Moors, 243.

(٣٠) البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٣، ص ١٢٥١.

(٣١) مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص ٨٢-٨٤.

(٣٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٨-١٠١.

شديد الحماسة لنشر الاسلام في مملكته، كما اسلم ملك تكرور (وارجابي بن رابيس) الذي توفي سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٥م[٣٣].

ويبدو أن كثيراً من الشعائر الدينية قد دخلت إلى غانة قبل دخول المرابطين[٣٤]، لكن الأمور لم تتضح معالمها إلا بدخول المرابطين إلى مدينة اودغست والاستيلاء عليها سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، ومدينة غانا ٤٦٩هـ/١٠٧٦م[٣٥].

وعينوا عليها حاكماً من البربر وبرزت الآثار العربية في بعض حواضر غربي افريقية في العاصمة المسماة بـ (كومبي صالح) وفي غيرها من الحواضر، ووجدت المدارس بجوار المساجد، ففي مدينة زاغه التي زارها ابن بطوطة، وصف أهلها بقوله : "قدماء في الاسلام ولهم ديانة وطلب علم..."[٣٦].

وقد اكتسبت اللغة العربية عند مسلمي غربي افريقية التبجيل والاحترام وكانت المراسلات الرسمية تتم بها، وكان الخط المتداول هو الخط الكوفي على طريقة المغاربة، وفي هذا يقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى: "...وكتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة، وقد ورد إلى السلطان الناصر كتاب من موسى - سلطان مالي - بالخط العربي..."[٣٧].

ويبدو واضحاً أن هدف الاسلام كان ولا يزال نشر تعاليمه في المجتمع والسلطة السياسية، من هنا أخذ حكام كانم على عاتقهم بعد اسلامهم نشر الاسلام في ديارهم، وكذلك حكام برنو الذين عرفوا بحماسهم البالغ لنشره خاصة الماي بن عثمان بن زينب (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) لظنه أنه ينتسب إلى عثمان بن عفان[٣٨] وحكام هذين البلدين ارتبطوا بعلاقات واتفاقيات سياسية وثقافية بينهم وبين مصر وطرابلس وتونس وتلمسان ومراكش والحجاز عن طريق الحج، وقد أورد القلقشندي نص الرسالة التي كتبها ملك برنو عثمان بن بري بن ادريس ٣٩١هـ/١٣٩٣م إلى السلطان الظاهر سيف الدين برقوق بمصر يستنجد به ضد أعدائه[٣٩].

كما ساهم على المستوى الشعبي غير الرسمي عدد من علماء المغاربة والشناقيط في نشر اللغة العربية والدين فيما كانوا يمرون في هذه الديار قاصدين مكة أو راجعين منها[٤٠]. ومن هؤلاء محمد عبد الكريم المغيلي، وأحمد بابا

(٣٣) البكري، المغرب، ص ١٧٢، ١٧٨.

(٣٤) المرجع نفسه، ص ١٧٥، ١٧٨.

(٣٥) المرجع نفسه، ص ١٧٢.

(٣٦) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٦٤.

(٣٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص ٢٩٨.

(٣٨) طرحان، امبراطورية البرنو، ص ١١٢.

(٣٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص ١١٦.

(٤٠) أبو بكر، الثقافة الغربية، ص ١٤٧.

النبكتي وغيرهما، ومنهم من درس في الأزهر مثل الأمين الكاتمي، ومنهم من درس في المغرب وتنبكت والقدس مثل جبريل بن عمر وغيره الكثير[٤١].

والملاحظ أن الرؤساء الذين اتخذوا النظم الاسلامية أساساً لتنظيم إماراتهم لم يتسموا بالامراء بل سموا بـ (المؤدبين) Modibs أو (معلمين) Mallaws أو (شيخ) Shehu[٤٢]، وهذا يدل على مقدار الاهتمام والتقدير للغة والدين[٤٣]، ولذا كانت المراكز التعليمية تقوم بمهمتها في تعليم الكبار والصغار على حد سواء، وكان لكل مدرسة منهاجها الخاص بها، والصفة الغالبة على التدريس التحفيظ دون الفهم والاهتمام بالشكل دون المضمون، والمدرسون يدرسون احتساباً ولا ينالون أجراً، وساعد على ذلك انتشار الطرق الصوفية التي كان من أبرزها الطريقة القادرية والتيجانية التي تبناها المرابطون المسمون بالملثمين المرابطين - الطوارق - الهجار الآن[٤٤].

ويبدو أن السمة الغالبة على التعليم في السودان الغربي هو التعليم الديني، ولذا غدا الأثر الروحي؛ هو الأثر البارز في الجماعات الاسلامية، وأن الاسلام حافظ على هيكل البناء الثقافي بهويته الافريقية، بمعنى أن النقلة الحضارية كانت بقدر التفاوت بين مدخلات الاسلام والثقافة المحلية.

ويبدو أن التعليم في هذه الديار قد اتخذ مسلكاً عند أهلها مثلما أتخذ منهاجاً عند علمائها، فقد أصبح تعليم الصبية يقع على عاتق الأب الذي يعد القدوة الحسنة للأولاد، والمكلف بمساعدتهم في كسب المهارات الضرورية للتغلب على أعباء الحياة، وبالمثل يقع تعليم البنت على والدتها، وكانت الأسرة تولي القصص الشعبية ذات المضمون الأخلاقي أهمية كبيرة وتعدها من أفضل الوسائل التعليمية[٤٥].

أما عن التجارة وأهميتها في نشر المؤثرات الحضارية خاصة اللغة والدين، فيرجع ذلك إلى القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي، ولكن هذا لا يعني، أن التجارة لم تكن ممارسة من قبل، فقد انتشر الاسلام في صنهاجة التي كان لها باع طويل في التجارة، وكانت الرئاسة فيها من قبيلة لمتونه، والحكم من بيت تنطق، وكان انتشاره في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) عند فتح الأندلس[٤٦]. وعلى مر الزمن وجدت عدة طرق تجارية تربط السودان الغربي بالمغرب العربي، كان من أبرزها:

- طريق سجلماسة - ولاته - تنبكت - جني - جاو
- طريق تكرث - ورقلة - جاو - الموانئ الجزائرية في الشمال
- طريق جريرة جنوب تونس - ورقلة - سوف - غدامس.
- طريق طرابلس الغرب - غدامس ومنها يتفرع إلى فزان وينتهي إلى بورنو وجاو.
- طريق من مصر - واحة سيوه - زويله - تادمكه - جاو - تنبكت[٤٧]. وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه الطرق وفي نهايتها، وما لها من أثر اقتصادي وثقافي وسياسي.

ويتضح الأمر من حديث البكري، حينما يتعرض لوفرة المياه في الصحراء، وان السفر فيها ليس كما يصوره البعض بإنه بالغ المشقة للغاية، ويؤكد مثل هذا ابن خلدون، حينما يشير إلى الآبار الارتوازية في قلب الصحراء، فيقول: "وفي البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غربية في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى، وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جوفها، ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقتها عن الماء فينبعث صاعداً فيفعم البئر، ثم يجري على الأرض وادياً"[٤٨].

ويشير السليماني إلى المسافات بين المراكز التجارية، فيقول: "...فمن سجلماسه إلى جبل ارفوه مرحلة وهي جبل موات لا عمارة فيه وبه بئر ماؤها نافع للأمراض الجلدية، ومنه إلى الإحساء بلاد رملية قريبة الماء يحفر فيها ويوجد الماء تحت الرمال على ذراع ونحوها..."[٤٩]. ويرى بوفيل أن أهم هذه الطرق، الطريق الممتد من تفازة إلى تنبكت، وهو الطريق الذي اشتهر بتجارة الذهب"[٥٠].

ويرى ابن خلدون أن الطريق القديم في عهده الممتد من ناحية السوس إلى ولاتن (والاتا) قد أهمل نتيجة لاعتداءات الأعراب من البادية السوسية على سابلتها فتركوا تلك الطريق ونهجوا الطريق الموصل إلى السودان من أعلى تمنطيق - توات[٥١].

نستنتج من ذلك أن القبائل كانت طرفاً في مشروع تجارة القوافل، ولذلك فمن الطبيعي أن تقوم بينها صراعات كبيرة

---

(٤١) المرجع نفسه، ص ١٤٧.

(٤٢) العراقي، انتشار اللغة العربية، ص ١١٠.

(٤٣) ابن بطوطة، تحفة الانظار، ص ٦٧٣.

(٤٤) Jah, Sufismand The Mine Teeth Century, 190; Zebadia, The Career and Corres, 396.

(٤٥) Nadel, Op. Cit. 378.
لين، قصص شعبية افريقية.

(٤٦) ابن خلدون، تاريخه، ج٦، ص ١٩٨-١٩٩.

(٤٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩١؛
ابن بطوطة، التحفة، ص ١٧٦.
زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٢٥، ٢١٤.

(٤٨) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١١٩.

(٤٩) السليماني، زبدة التاريخ، ج١، ص ٣٨٢.

(٥٠) Bovill, The Golden Trade, 235.

(٥١) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١١٨.

حول امتلاك الطرق، فالوضعية السياسية في الصحراء لم تكن مبسطة كما يتصورها البعض، بل كانت معقدة بشكل تثير أطماعاً بين قبائل الصحراء من أجل السيطرة على الطرقات، وما الصراع بين زناته وصنهاجة إلا مثال حر على ذلك، فقد شهد القرن العاشر الميلادي تكوين إمارات زناتية في المغرب الأقصى، وازدهرت في عهدهم كل من سجلماسه وادغست كمحطتين رئيسيتين في طرق التبادل التجاري، لكن بعد مضي خمسة قرون من هذا الصراع في الخامس عشر الميلادي، الخامس الهجري تحولت الهيمنة والسلطة لصالح قبيلة صنهاجة المعروفة بكثرتها، والمسماة عند المؤرخين بالملثمين أو المرابطين، وقد انبثقت عنها دولتها المسماة بـ (دولة المرابطين) التي أخذت على عاتقها حماية التجارة في الصحراء المعتمدة على جلب الذهب من السودان الغربي، والذي كان متداولاً آنذاك كعملة نقدية، بدلاً من الأوراق النقدية الآن.

ولذا كانت سيطرة المغاربة منذ القرن العاشر الميلادي بواسطة ممالك زناتة ومن ثم سيطرتها في القرن الخامس عشر بواسطة دولة المرابطين من الصنهاجيين على طرق المواصلات المؤدية إلى مناجم الذهب، شبيهة بسيطرة الاسبان في القرن السادس عشر على اميركا لاحتوائها على مناجم الذهب هناك، وكانت القوافل التي تحمل الذهب من السودان الغربي إلى المغرب الكبير عبر سجلماسه، وورقله، وغدامس وغيرها من المراكز التجارية، شبيهة بالأساطيل البحرية التي كانت تحمل هذا المعدن من اميركا إلى اشبيلية.

من واقع هذا الصراع وحب الامتلاك لهذا المعدن، احتل المرابطون غانا باعتبارها مركزاً تجارياً مهماً في السودان الغربي، وفي عام ٦٣٨هـ/١٢٥٠م تغير الميزان التجاري وانحرف جهة الشرق إلى منحنى نهر النيجر الأوسط، وأصبحت جني، وتنبكت، وجاو، مراكز تجارة للاستيراد والتصدير، واكتسبت طرق الشرق اهميتها بقيام سلطنتي كانم وبرنو، وأصبحت كانو المركز الرئيسي التي تنتهي إليه الطرق التجارية بدلاً من تنبكت.

ونستنتج مما ورد أهمية المراكز التجارية في المغرب وفي السودان الغربي. ومن المدن المغربية التي تمتعت بأهمية تجارية كبيرة، مدينة سجلماسة التي ذكر ابن حوقل بأن الطريق بينها وبين اودغست تستغرق شهرين، وهو توضيح استقاه من العارفين بتحركات القوافل في المنطقة، وأن سجلماسة كانت العقدة في شبكة المواصلات البرية ما بين الشمال والجنوب، الأمر الذي ساعدها في أن تصبح مركزاً تجارياً هاماً منها تنطلق القوافل صوب تغازة[٥٢].

تغازة: قرية صغيرة مبنية من حجارة الملح، وسقوف بيوتها من جلود الجمال، كما يروي ابن بطوطة، وكانت تعقد فيها الصفقات التجارية على طريقة المقايضة الملح بالتبر، وفي القرن الثامن للهجرة كانت تابعة لقبيلة مسوفة[٥٣].

تكدا: اشتهرت بانتاج النحاس الذي يستخرج من مناجمها ويحمل إلى بلاد السودان، ويسبك هناك، وتصك منه العمّلة، ومن تكدا تسير القوافل حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب، ومنها تصدر السلع إلى المغرب[٥٤].

والملاحظ أن أفضل الفصول لسفر القوافل هو فصل الخريف، وأفضل أوقات اليوم الصباح الباكر، حيث يضعون الأحمال على الجمال ويسرعون في سيرهم إلى أن تصبح حرارة الشمس لا تحتمل، عندئذ تتوقف القافلة من أجل الاستراحة، وتنصب الخيام إلى أن تمر ساعة الزوال وتنخفض درجة الحرارة، فتحمل الجمال من جديد وتستأنف القافلة سيرها إلى أن يغشاها الظلام، فتحط رحالها من جديد إلى الفجر، ثم يتم استئناف السير[٥٥]، ولا يتوقف سير القوافل في الصحراء إلا في فصل الشتاء.

وكان من بين رجال القوافل الأدلاء[٥٦] والسماسرة والحراس، الذين يمتشقون السلاح لحمايتها، فقد اتخذت كل قافلة لها طبلاً يقرع عند الرحيل، وراية تتقدم عند السير[٥٧]، وكانت القوافل تستأجر الجمال أو تشتريها من القبائل الموجودة في الصحراء والقريبة من الطرقات مستعينة بها في تقديم العلف للجمال وتحميل الأحمال، وكانت القبائل تقوم بتوزيع الأعمال بين أفرادها، فقبيلة مسوقة تشرف على الطريق الذي يربط سجلماسة بولاته، وكانت تتقاضى أجوراً على هذا الاشراف[٥٨]، وكان شيخ القبيلة يشرف على العمال الذي يقومون باستخراج الملح من مناجمه في تغازه، ويختلف عدد الجمال في القافلة الواحدة، فقد يصل إلى سبعين، وإلى مائة[٥٩]، وكانت القوافل تؤدي ما عليها من حقوق منذ خروجها من مراكزها في الشمال إلى أن تصل إلى مراكزها في الجنوب، ولعل عملها اشبه بعمل الايلاف الذي قام به عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان يتاجر مع الشام واليمن.

(٥٢) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩١.

(٥٣) المرجع نفسه، ص ٩١.

(٥٤) المرجع نفسه، ص ٩١.

(٥٥) المرجع نفسه، ص ٦٥٩.

(٥٦) المرجع نفسه، ص ٦٦٠.

(٥٧) دهينة، العلاقات التجارية، ص ٩٩-١٠٣.

(٥٨) ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٥٩-٦٦٠؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٩.

(٥٩) ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٣.



وكانت القوافل تصادف الصعاب الكثيرة، فعلاوة على قطاع الطرق، هناك المفاجآت التي تصادفها من هبوب الزوابع والعواصف، الأمر الذي يؤدي إلى تفتيت جهودها، وربما تضل بعض الجمال طريقها، فينقطع اتصالها بالقافلة.

ورغم ذلك فقد ازدهرت التجارة وتطورت أساليبها خاصة عند المغاربة.

توات: وهي من المراكز التجارية الهامة، أشاد بها ابن خلدون بقوله: "... فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة وتسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المائتين، أخذ من الغرب إلى الشرق، وآخرها من جانب الشرق يسمى تمنطيت، وهو بلد متبحر في العمران، وهو ركاب التجار المترددين من المغرب إلى بلد مالي من السودان لهذا العهد..."[٦٠].

وهي مركز انعاش لتجار القوافل، تزودهم بالماء والغذاء، وبها يتم تبديل القوافل من جمال متعبة بجمال نشطة ومعها أدلاء نشطون، وبها يتم التبادل التجاري بين تجار السودان وتجار الشمال[٦١].

غدامس: مركز تجاري هام، تتفرع منه عدة طرق تجارية هامة، فهي تستقبل القوافل القادمة من طرابلس وجنوب تونس والجزائر وتتجمع فيها، فالبعض منها يسافر غرباً إلى توات ومنها إلى تنبكت، وبعضها يسافر مباشرة إلى غات وكانو، والفرع الثالث يتجه إلى الجنوب الغربي إلى مرزوق ومنها إلى برنو.

مرزوق: كان لها صلة وثيقة ببرنو وبلاد توات وغدامس، واتصالها بمدن السودان الغربي أكثر من برنو، وهي مركز انعاش للقوافل القادمة من غدامس وطرابلس إلى بلاد الهوساوبرنو، وكانت تعد من المراكز الهامة لتجمع الرقيق[٦٢]. فأصبح لديهم تقاليد وأعراف[٦٣] متفق عليها في معاملاتهم ومحاسباتهم تتماشى مع المعاملات والأساليب الحسابية الحديثة، فهم يحسبون تكلفة البضاعة، وتكلفة الضرائب، ويضعون في اعتبارهم المخاطر التي تتعرض لها بضائعهم، كما يضعون نسبة مئوية لما ستجنيه تجارتهم، ويتعاملون بالكشوف أو السجلات، ويبرمون العقود الشفوية[٦٤].

أما المراكز التجارية السودانية فكان من أبرزها:

تنبكت: ازدهرت في عهد سلطة سنغي واكتسبت موقعها الممتاز في منحنى النيجر، فأصبحت أقرب محطة للقوافل التجارية القادمة من المغرب، كما أن موقعها على نهر النيجر جعلها حلقة وصل بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وأهم السلع التجارية التي تقوم بتسويقها، الذهب، والملح، والكتب[٦٥].

جاو: وتعد عاصمة سلطنة سنغي، وقد أشار إليها صاحب الاستبصار بقوله: "وأهلها مسلمون... وأكثر ما يحمل إليها الملح والودع والنحاس المسبوك، وحواليها معادن التبر، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً...".

يتضح مما سبق أن أهم السلع في هذه المراكز الملح والودع والنحاس المسبوك، فالأولى تصدرها مدينة تغازة والثانية يؤتى بها من الهند، والثالثة تصدر من مدينة تكدا، وتعد جاو إلى جانب ما ذكر من أكبر المراكز في تجمع الرقيق[٦٦].

جني: تأسست في القرن الثالث الهجري، واشتهرت بتجارتي الملح والذهب، ويصفها السعدي، بأنها سوق عظيمة يلتقي فيها تجار الملح وتجار الذهب، وهي تقع على ملتقى الطرق، ونظراً لإحاطة الماء بها من جميع الجهات، فإنها حميت من غارات المعتدين، وامتازت بوفرة محاصيلها خاصة محصول القطن حيث يصدره التجار المغاربة إلى أوروبا مقابل الأواني النحاسية التي يقايضونها بالقطن مع أهل جني، كما يقوم أهلها بنقل الملح والذهب عن طريق القوارب من تنبكت إلى جني وبالعكس.

وبعد هذا العرض للمراكز التجارية، يمكننا أن نقسم السلع إلى قسمين، سلع مغربية وأخرى سودانية[٦٧] السلع المغربية، وتتمثل بالملح الذي يعد من أهم السلع للسودانيين، والذي لا تقل أهميته عن أهمية الذهب بالنسبة للمغاربة، ولذلك كان يتم تبادله وزناً بوزن.

وبلغ من أهمية الملح عند السودانيين أنه اتخذ عندهم كعملة شرائية يتصارفون به كالذهب[٦٨].

أما النحاس، فكان يعدن بخارج مدينة تكدا على شكل قضبان ويستخدم كعملة شرائية، فكان وزن مثقال منه يساوي ثلثي مثقال من الذهب إلى جانب استخدامه كأداة من أدوات الزينة[٦٩].

الودع، ويعد هو الآخر كعملة تداولية، وكان التجار المغاربة يجلبونه إلى السودان، ولكن الأوروبيين في العصور الحديثة أخذوا امتيازه من المغاربة وأصبحوا يجلبونه بدلاً منهم، يأتون به من الهند.

---

(٦٠) ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١٧-١٨.

(٦١) ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٨٠-٦٨١.

(٦٢) Bovill, The Golden Trade, 52.

(٦٣) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٩.

(٦٤) عوض الله، تجارة القوافل، ص ٨١.

(٦٥) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٠-٥٤١.

(٦٦) Bovill, The Golden Trade, 149.

(٦٧) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٤-٢٥.

(٦٨) العمري، مسالك الابصار، مخطوط، ورقة ١٩٣؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٥٨.

(٦٩) ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٨-٦٧٩؛ العمري، المسالك، مخطوط، ورقة ١٩٣؛ البكري، المغرب، ص ١٦٢؛ الادريسي، النزهة، ص ٦٦.

وجلب المغاربة إلى السودان الأقمشة، وقطع الزجاج، وكان لحبات الزجاج أهمية عندهم حيث تستخدم كمسابح أو عقود[٧٠].

أما السلع السودانية، فكان من أبرزها الملح الذي في تغازة، حيث يستبدل الحمل منه بعشرة مناقيل من الذهب وقد يصل إلى أربعين، مما أدى إلى ثراء أهلها، ووفرته في أسواقها، وبسبب تكالب الناس على حوزته نشطت الاكتشافات الجغرافية التي كان هدفها الاستيلاء على مناجم الذهب في الدنيا الجديدة، بدلاً من الذهب في السودان الغربي[٧١].

أما الرقيق، فكان يأتي في الدرجة الثانية بعد الذهب، وأصبح الطلب عليه كثيرا بعد أن تم اكتشاف الاميركيتين، وكان يصدر للمغرب وتركيا ومصر واسبانيا بل وأوروبا كلها، حتى السودانيين انفسهم استخدموه في بيوتهم الخاصة[٧٢].

ويبدو أن السودان الغربي اشتهر بكثرة انتاجه من القطن التي نقلت بذرته من المغرب، وكان يستبدل بسلع مغربية عن طريق المقايضة[٧٣]، واستخدم الفول السوداني في هذا المضمار، إذ كان يتم تبادله مع الطعام، ومن كثرة انتاجه ارتبط اسمه باسم المكان (السودان) فسمي بالفول السوداني، وكذلك كان السودان يصدر العاج لكثرة الحيوانات البرية الموجودة في غاباته[٧٤].

أما عن التعاون التجاري بين المغرب والسودان الغربي، فكان يتم في بداية الأمر بما يسمى بـ (التجارة الصامتة)[٧٥] ثم ظهرت فيما بعد تجارة المقايضة الملح بالذهب وزناً بوزن، وتخضع هذه المقايضة للعرض والطلب في إحدى السلعتين، فعندما يقل وجود الملح تبادل وزنة منه بوزنتين من الذهب، واستخدم الودع كوسيلة للشراء، يأتي به المغاربة والمصريون من المحيط الهندي، ويقومون بتسويقه في هذه الديار، واستخدمت قطع القماش القطنية كشيكات[٧٦]، واستخدمت الذرة والنحاس كقضبان وحلق كأسلوب من أساليب التعامل، إلى جانب قطع الذهب والملح للتصارف، وعرف إلى جانب ذلك نظام الصكوك عند التجار المغاربة، فقد شاهد ابن حوقل صكاً بقيمة (٤٢٠٠٠) دينار[٧٧].

أما الأسعار، فكانت تخضع للعرض والطلب، وأكثر ما يتعرض للتذبذب وعدم الاستقرار، تجارة الرقيق، فقد اشترى ابن بطوطة جارية بخمسة وعشرين مثقالاً في منتصف القرن الرابع عشر[٧٨].

ولم يقتصر استخدام الرقيق على المغرب وتركيا ومصر واسبانيا، بل استخدمه السودانيون في بيوتهم، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أثمانهم[٧٩].

واحتلت الخيول أعلى الأسعار في القائمة، فكان الحصان الواحد يساوي أربعين مثقالاً، وقد يصل إلى المائة[٨٠].

أما الجمال فقد تراوحت أسعارها ما بين أربعة مثاقيل، والأبقار ما بين مثقالين ونصف إلى ثلاثة ونصف[٨١]، وعشر حبات من التمر البسكري، تباع بخمس ودعات[٨٢]. وبلغ سعر المد الواحد من القمح في القرن الرابع عشر للميلاد في مدينة تكدا أوقية من الذهب، ومثله الزبيب والفواكه المجففة.

أما المقاييس والمكاييل والموازين، فكان من وحدات المقاييس الشبر وهو المسافة ما بين الخنصر والإبهام حينما تكون الكف مبسوطة، ويساوي تقريباً (٥ر٢١سم)، والذراع ويمثل المسافة ما بين عقد المرفق ونهاية الوسطى ويساوي (٥٠سم) وكانا يستخدمان لقياس الأقمشة والحيطان والحقول.

والميل يستخدم في قياس المسافات والفرسخ لقياس المسافات الطويلة ويقدر بثلاثة أميال.

والبريد، ويقدر بالمسافة التي يقطعها الحصان بسرعة لمدة ساعة.

المكاييل، وهي وحدات للوزن منها، المد ويساوي ملء الكفين.

والصاع، ويساوي أربعة أضعاف المد، ما يعادل ثلاثة لترات[٨٣].

القنطار، وقدر بمائة رطل، المد، وهو ما يحمله الرجل من حبوب أو غيره في كيس من الجلد.

الموازين، وتتمثل بالمثقال والأوقية والدرهم، فالمثقال يساوي ٧٢ حبة من حبات القمح المتوسطة الحجم ويقدر وزنه بـ (٤ غرام) والدرهم ويساوي سبعة أعشار الدينار ويساوي أربعين درهماً والأوقية وتساوي (٧٥ر٢ غراماً)،

(٧٠) العمري، المسالك، ورقة ١٩٠؛
ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٧.
(٧١) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٢٦.
(٧٢) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٦.
(٧٣) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٧.
(٧٤) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٦٥.
(٧٥) Bovill, The Golden Trade, 38.
(٧٦) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٧٩.
(٧٧) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٦.
(٧٨) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٨؛
البكري، المغرب، ص ١٥٨.
(٧٩) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٤.
(٨٠) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٤.
(٨١) البكري، المغرب، ص ١٥٨؛
ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٣؛
زبادية، مملكة سنغاي، ص ٢٠٤.
(٨٢) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٨؛
البكري، المغرب، ص ١٥١.
(٨٣) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٨-٢٠١.

وكانت المعايير تصنع من النحاس، أو الحجر، أو الرصاص، أو الزجاج.

نستنتج مما ذكر تطور التجارة ورواجها في فترات زمنية متعددة، بعكس ما أورده بعض المؤرخين والباحثين أمثال لاكوست من أخبار عن انقطاع التجارة في القرن الرابع عشر للميلاد، تتلخص بما يلي:

١. انقسام البلاد إلى قسمين، منطقة خاضعة للدولة، ومنطقة ضدها.
٢. الأخذ بسياسة الإقطاع لصالح رؤساء القبائل العسكرية حتى يحافظوا على سندهم للدولة.
٣. تعطيل طرق الذهب بين المغرب والسودان.

ويبدو مما ورد أن "لاكوست" قد حمل ابن خلدون فوق ما يحتمل حينما بين أن ابن خلدون قد اشار إلى قطع طرق التجارة بين السودان والمغرب، وواقع الأمر أنها لم تنقطع إنما انتكست ثم عادت، والدليل على ذلك ما قام به الموحدون من سك عملة ذهبية امتازت بالجودة والاتقان، فقد سك الخليفة يعقوب المنصور الموحدي، ديناراً بلغ وزنه (٧٢ر٤ غرام) سمي بـ (المضعف)، فلو لم يكن لديه كميات كبيرة منه فكيف يسكه.

ولا ننسى أن في الفترة الزمنية الواقعة ما بين انهيار الدولة الموحدية وقيام الدولة المرينية تجمعت عدة قوافل مع بعضها كونت (ما يسمى بـ "الشركات المساهمة") اتخذت لنفسها حراساً يرافقونها عبر الصحراء إلى السودان، وأخذت القبيلة دور السلطة في تأمين طرق مواصلاتها البعيدة، وعندما تأسست الدولة المرينية، عملت عدة وسائل لتنشيطها من بينها، دار سميت بـ (دار الإشراف على الأمتعة) وكانت قافلة المقري وأخوته خير دليل على هذا النموذج، فقد أتخذ لها عدة محطات تجارية في كل من، سجلماسة، تلمسان، ويولاتن، وقامت بعقد اتفاقيات تجارية مع البلدان التي تتاجر معها من ضمنها بلاد تكرور، ونالت تجارتهم مدحاً وثناء من الأمير يغمراسن الزياني بسبب رواجها[٨٤] وعليه، فقد أدت القوافل دورها المحمود في تعميق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية[٨٥] بين المغاربة والسودانيين، فالصلة المباشرة وما ينجم عنها من احتكاك تتصف بالخلال الطيبة وبالتعابير والكلمات العربية، مثلما ذكر من مسميات للأوزان والمكاييل والمقاييس، وقد نجم عن اختلاط التجار بالسكان التزواج والامتزاج في العادات والتقاليد التي تضمنت مفهوماً أخلاقياً عظيماً ظهر خلاله الكثير من القيم الاسلامية[٨٦].

أما الصناعة، فيعود الفضل في نموها إلى الاسلام الذي قدم المبررات النفسية والاجتماعية للعمل والعمال والحث على الكسب الحلال، فقد أخذ التعري بالاختفاء، وأصبح الناس يرتدون الملابس، وهكذا بدأت بعض الصناعات بالازدهار، علماً بأن السودانيين تعلموا من العرب وسائل جديدة لتطوير صناعة بعض المعادن المتوافرة لديهم كالذهب والنحاس.

ومن الواضح أن معدن الذهب كان من أهم المعادن في السودان الغربي، وبفضله راجت التجارة بينه وبين المغرب بشكل خاص والوطن العربي بشكل عام.

وكانت مراحل الحصول عليه في البداية بسيطة تتم عن طريق الالتقاط، وكانت مواطنه في الجبال العالية التي يصعب الوصول إليها، لكن نهر النيجر يجرف معه أثناء مروره منها الذهب وغيره من المعادن، وعند مدينة تنبكت وغاءو يتسع مجراه لكثرة مياهه التي تفيض على جوانبه، وبعد الانتهاء من الفيضان، تترسب الفلزات ومن ضمنها الذهب الذي يمتاز بلمعانه فيلتقطه السكان ويبيعونه للتجار العرب.

وذكر الادريسي ذلك بقوله: "إذا حمي القيظ وخرج النيل فاض وغطى هذه الجزيرة - تقاوة - وأكثرها وأقام عليها مدته... ثم يأخذ في الرجوع والجزر، رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحاثاً طوال أيام رجوع النيل، كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله من التبر، وما يخيب منهم أحد، اشترى أكثر أهل ورقلان وأهل المغرب الأقصى، هكذا في كل سنة وهو أكبر غلة عند السودان، وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم[٨٧].

وحقيقة الحصول على الذهب من جزيرة تقاوة كانت غير واضحة لأهلها، حيث كانوا يظنون بأنه ينبت على جوانب النهر عقب نزول المطر، وتناقل الأخبار المؤرخون ومنهم ابن فضل الله العمري الذي تحدث عن هذا الأمر فقال: "يؤخذ الذهب على نوعين، نوع في زمان الربيع، ينبت عقب الأمطار على الصحراء وله ورق شبيه بالنخيل، أصوله التبر، والنوع الآخر لا يوجد في جميع السنة، في أماكن معروفة على ضفاف النيل - النيجر - فتحفر هناك حفائر، فتؤخذ أصول الذهب كالحجارة والحصى..."[٨٨].

وتطورت عملية جمع الذهب بطريقة الالتقاط المار ذكرها، بعد استقرار الاسلام في السودان الغربي حيث تعلم زنوج المنطقة فنوناً جيدة وعلمية، تمكنوا بها من الحصول

---

(٨٤) السبتي، اختصار الاخبار، ص ٤٥؛
أبو دياك، نظام الحكم، ص ١٦٣-١٦٤؛
دهينة، الأصالة، ص ٩٩.
(٨٥) الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٠.
(٨٦) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ٣٤-٣٥.
(٨٧) الادريسي، النزهة، ص ٨.
(٨٨) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٣.

على كميات كبيرة من الذهب، وتتلخص هذه الطريقة بحفر حفر عديدة في المناطق التي يسير فيها نهر النيجر ويلتقط منها الذهب، وهذه الحفر كانت تملأ بالزئبق وتترك حتى يمر عليها عام ثم يؤتى بها عندما يصبح الزئبق ذهباً، لأن الماء عندما يجري يحمل الرمل مع الذهب الذي يكون عادة كأجنحة البعوض رقة وصغراً، وعندما يمر فوق حفر الزئبق يتعلق به، بينما يجري الماء مع الماء[٨٩].

كذلك نظم الزنوج في السودان الغربي كشوفاً بمناجم الذهب بعد دخول الاسلام، وازداد نشاطهم في جمعه لحاجة الناس إليه، لذلك كانت الدولة تضع يدها على المناجم الرئيسية المكتشفة وتمنع التصرف فيها بعد أن تضع عليها الحراسة من قبلها، وكان السلطان نفسه يأتي إليها كل عام ليستخرج منها الذهب، وينقله إلى مقر حكمه، ويقوم بتصنيعه وتصديره إلى الخارج.

وذكر ابن فضل الله العمري ذلك بقوله : "وحدثني السلطان موسى أن الذهب حمى له، يجمع متحصله كالقطيعة إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة"[٩٠].

أما طريقة تصفية الذهب وتخليصه من خبثه، فكانت تتم أما بإذابته بالنار وحده، إذا كان نظيفاً بشكل عام، أو أتخاذ الشعيرة. ووجه العمل في ذلك أن يكسر التبر ويهرس بمهراس، ثم ينخل بغربال قد أعد لذلك، فما علا الغربال يسمى عشوراً، وما خرج منه فيحك بالزئبق حكاً منعماً، فما قبله الزئبق فهو الذهب، وما لم يقبله طرح. ثم بعد ذلك يؤخذ، فتخلط عجينة الزئبق به وتحمى بالنار إلى أن يذهب زئبقها فيبقى الذهب، فيخلط مع العشور ويوزن ويحفظ وزنه، ثم يسبك بالنار إلى أن يذاب، ثم يصب في قوالب معينة وهي التي تسمى بالسبائك ثم يوزن بعدها ليعلم مقدار ما نقص منه أثناء السبك عن وزن الأول[٩١]، وهذه السبائك تجلب من السودان الغربي إلى دار الغرب في المغرب ومصر[٩٢]، وعادة ما تتم عمليه ضرب العملة بعد إعادة تصفية السبائك الذهبية من جديد عن طريق ترقيق السبائك المجلوبة بالمطرقة، ثم توضع بالشحيرة[٩٣]، ويوضع الكل بعدها في قدر يوضع في فرن ويوقد عليه النار يوماً وليلة أو دون ذلك على نار هادئة، ثم يخرج منه ويقاس بالمعيار فإن بلغ حده نزل وسبك ثم دفع للمتخصصين لضربه عملة[٩٤].

(٨٩) الحكيم، الدوحة، ص ٣٠.

(٩٠) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٧.

(٩١) الحكيم، الدوحة، ص ٦٩.

(٩٢) الادريسي، النزهة، ص ٨.

(٩٣) الحكيم، الدوحة، ص ٢٣.

(٩٤) الحكيم، الدوحة، ص ٧٠.

ويلي الذهب في الأهمية معدن النحاس، كمورد طبيعي قامت عليه العديد من الصناعات المحلية التي ازدهرت بشكل كبير بعد دخول الاسلام إلى المنطقة، ويبدو أن معدني النحاس والذهب قد بدئ باستعمالها في السودان الغربي في وقت مبكر، لأنه من السهل نسبياً استخلاص هذين المعدنيين من خاماتهما على درجة حرارة عادية، بالإضافة إلى أن الزنوج استفادوا منهما في صنع أشكال فنية ومصوغات بسيطة نظراً لسهولة استعمال هذين المعدنين في الصناعة لعدم صلابتهما بشكل كبير كمعدن الحديد مثلا.

وقد ذكر ابن بطوطة بشأن معدن النحاس أن أهالي السودان الغربي كانوا يحفرون عليه في الأرض يأتون به إلى البلد فيسكبونه في دورهم[٩٥] مما يدل على أن عملية تعدينه بسيطة تتم محلياً وباليد.

ومما هو جدير بالذكر أن أهم منطقة توجد فيها مادة النحاس في أرض السودان الغربي هي منطقة (تكدا Takeda) الواقعة بين مدينتي غاءو وآدر في أقصى دولة مالي، حيث يتم تصنيعه على "شكل سبائك"، ثم تحول هذه السبائك إلى قضبان في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، وهي صرفهم؛ يشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح[٩٦]، واستفاد الزنوج في السودان الغربي من علاقاتهم مع البلدان الاسلامية في تطور صناعة تعدين النحاس حيث توصلوا إلى معرفة طرق جديدة تمكنوا بها من تقوية معدن النحاس بخلطه مع الزنك أو القصدير.

ففي الحالة الأولى يحصل سبائك النحاس الأصفر، وفي الحالة الثانية سبائك البرونز التي تصنع منها السيوف وبعض الأواني ورؤوس الشبابيك والدبابيس والدروع، وبعض حكامهم استخدموها لبناء أضرحة من يموت منهم[٩٧].

كذلك عرفت منطقة السودان الغربي معدن الحديد وعملت على تصنيعه ولكن يبدو أنه في وقت متأخر في عهد مملكة سنغاي، وقد دعت الحاجة إليه لاستخدامه في التصنيع الحربي، وكانوا يأتون به من منابع نهر النيجر، واقتصر في تصنيعه على قبائل خاصة كقبيلة (كوروما Koroma) التي سميت بقبيلة الحدادين[٩٨].

ومن الصناعات التي تطورت بشكل كبير بعد دخول الاسلام إلى منطقة السودان الغربي (صناعة الخياطة) نظراً لأن الزنوج كانوا بشكل كبير قبل دخول الاسلام إلى

(٩٥) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٨.

(٩٦) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٨.

(٩٧) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٧٠.

(٩٨) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٣.

المنطقة عراة لا يستترون، وبعد أن اعتنقوا الاسلام اهتموا بالاكتساء، لأن الدين الاسلامي يطلب من أتباعه ستر العورات، ساعد على نمو هذه الصناعة توفر موادها الخام. فهناك الجلود الصالحة لصناعة الألبسة، وكذلك الصوف والوبر والقطن.

وانتشر في السودان الغربي صناعة الأقمشة التي تعتمد على الياف أشجار خاصة تسمى (تورزي) وكانت تلك الأقمشة ذات مميزات خاصة لا تشتعل فيها النيران، لذلك كان لها صدى بالغ الأثر في الأوساط التجارية، ويقال أنها وصلت إلى ملك انكلترا وصاحب القسنطينة وكانت معروفة في المشرق الاسلامي.

وذكر البكري في كتابه المسالك عن هذا النوع من الاقمشة فقال: "ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق لفيفة تسمى تورزي، تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض، تصنع منه الثياب والأكسية، ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الثوب من الثياب لو أوقدت عليه الدهر... وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة[٩٩] بسجلماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجراً جلب منه منديلاً إلى جردلند صاحب الجلالقة وبذل فيه غناه، وبعث فيه جردلند إلى صاحب القسطنطينية ليوضع في كنيسته العظمى... وقد حدث جماعة أنهم، منه هداب منديل عند أبي الفضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضاً تكون له النار غسلاً وهو كثوب الكتاب"[١٠٠].

وحدث مثل هذا في المغرب الأدنى أيام الحفصيين، حيث كان من أهله أناس يغوصون في البحر المتوسط، فيخرجون كمائم شبيهة بالبصل بأعناق، في أعلاها زبورة فتنشر في الشمس، فتنفتح تلك الكمائم عن وبر، فيمشط ويخرج صوفه، ويعزل، ويعمل منه طعمة لقيام الحرير، وينسج منه ثياب مختمة، وغير مختمة، ويبلغ ثمن الثوب مائتي دينار ذهباً[١٠١].

وبالإضافة إلى المواد الأولية الخاصة بصناعة النسيج، فقد كانت تجلب إلى بلاد السودان الغربي أنواع كثيرة من الأقمشة والثياب، مما دفع إلى تطور هذه الصناعة فانبرى الزنوج لصناعة أنواع عدة من الأرز، والفوط، والأكيسة[١٠٢] بالإضافة إلى ملاحف القطن والحرير، لأن اللباس المخيط كان لا يلبسه إلا الملك وولي عهده، وقد ذكر البكري ذلك بقوله: "ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره وولي عهده وهو ابن اخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم[١٠٣].

وعلى ما يبدو فإن صناعة النسيج قد تطورت عموماً في عهد دولة سنغاي بعد استقرار الاسلام في السودان الغربي، وكانت هذه الصناعة منتشرة في معظم انحاء البلاد، وكانت بشكل عام حياكة باليد، وكان أهالي السودان الغربي يتنافسون على تعلمها، ففي تمبكتو وحدها وجد أكثر من ستة وعشرين حياكاً في عهد الاسيقيين، وكان في كل مكان ما يزيد على خمسين متعلماً.

ومن الملاحظ أن الدولة سنغاي عرفت صناعة الأقمشة القطنية التي كانت منتشرة في بعض مناطق السودان الغربي منذ منتصف القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، وكانت مدينة غاءو والعاصمة مركزاً هاماً لهذه الصناعة، وقد تمكنت غاءو هذه من تصدير قسم لا بأس به من الانتاج إلى مشارف الصحراء[١٠٤]. كذلك شاع استعمال الأصباغ لدى الزنوج في السودان الغربي بطريقة تدل على قدرتهم على التطوير والتقليد، فقد عرفوا اللون الأحمر والأصفر، والأزرق النيلي الذي يتفاوت في ظلاله من الأزرق الفاتح إلى لون يقرب من الأسود[١٠٥]. وقد اقتبسوا معرفة الألوان هذه من التجار العرب الذين خالطوهم، وكان الصناعون يستعملون في تجسيمها أوراق النباتات ويضيفون إليها في الغالب الشب والملح[١٠٦].

ومن الصناعات التي تطورت بعد دخول الاسلام إلى منطقة السودان الغربي صناعة الزيوت والصابون، وقد ذكر الانصاري أنه وجد في بلاد سنغاي (شجراً يشبه الراك يحمل ثمراً على قدر البطيخ في داخله شيء يشبه القند حلاوة يشعر بها حموضة يسيرة وشجر يسمى ريكان وثمره كالتمر ينفرك عنه قشرة فيكون غاية الدهانة والحلاوة يستخرجون دهنه ويأكلونه عوضاً عن السيرج والسمن ويفضلونه عليهما[١٠٧] .

ومن الأشجار التي اكتشفت في السودان الغربي في العصر الاسلامي، واستخدمت في صناعة الزيوت والصابون شجر اسمه قاريتي يحمل حباً شبيهاً بالليمون وطعمه شبيه بالكمثرى بداخله نوى ملحم "يؤخذ ذلك النوى وهو طري ويطحن فيخرج منه شبيه السمن، ويجمد فتبيض به البيوت وتوقد منه السرج والقناديل ويعمل منه الصابون. وإذا أريد أن يؤكل ذلك الدهن يحرق بتدبير على نار لينة ويغطى ويترك إلى أن يقوى غليانه ويبقى الذي يدبره... يضعه بالماء قليلاً مرات... ولا يحمله إلا ظرف قرع"[١٠٨].

---

(٩٩) هم حكام الدولة الصغرية وعاصمتهم سجلماسة.

(١٠٠) البكري، المغرب، ص ١٧٩-١٨٠.

(١٠١) العمري، وصف افريقية، ص ٢١.

(١٠٢) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٣، ١٠-١١.

(١٠٣) البكري، المغرب، ص ١٧٥.

(١٠٤) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢.

(١٠٥) السعدي، تاريخ السودان، ١٨، كوردول، ص ٩٢.

(١٠٦) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢.

(١٠٧) الانصاري، نخبة الدهر، ص ٢٤؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ص ٦٦٣.

(١٠٨) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٧؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.

وتطورت صناعة الجلود بعد القرن الخامس للهجرة، الحادي عشر للميلاد حيث استخدمت الجلود المدبوغة كساء للإنسان وخاصة الفقراء منهم، واستخدمت في صناعة النعال الجيدة والسروج وكنانات السهام وما إلى ذلك[(١٠٩)] وأدت هذه الصناعات إلى كثرة صناع الجلود وإلى تطوير صناعة الدباغة وازدياد مراكزها واتخذت لها مراكز محلية عديدة وكذا قشور الرمان والأملاح، أما طريقتها فكانت تعتمد على الغلي والنقع[(١١٠)].

وإلى جانب ذلك ظهرت صناعات أخرى ارتبطت بها، وهي صناعة الآلات الموسيقية وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية لدى سكان السودان الغربي، وكانت الطبول تصنع بشكل عام من مادة الخشب والجلود القوية والرقيقة وخاصة الطبل الذي كان من أهم الآلات الموسيقية لدى سكان السودان الغربي، وتكون إما بجلدين أو بجلد واحد، كذلك ينقسم الطبل إلى نوعين: إما على هيئة الإسطوانة أو على هيئة الطاس - ويدق الطبل عامة إما بقوة الأيدي أو بعصا معقوفة[(١١١)]، واستعمل الطبل لأغراض متعددة، كعلامة للبلاط الملكي وأحد ميزاته، وكإشارة من اشارات الحرب، أو للانذار بقربها. كذلك استفيد منه في الحفلات الشعبية أثناء الاحتفالات والمراسم.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان نوع معين من أصوات الطبول يشير إلى عامة الشعب بقرب اصدار بلاغات الملك وأوامره. ولذلك كانت صناعة الطبول رائجة ويقوم بها المهرة الذين يتفقون بصنعها وتزيينها[(١١٢)] ولا يخفى أن الصناعات عموماً تطورت بعد دخول الاسلام إلى منطقة السودان الغربي حيث رافق دخول الاسلام إلى المنطقة، دخول بعض جوانب الحضارة الاسلامية التي كانت متقدمة بشكل كبير على حضارة السودان الغربي، وعليه فقد تأثر الزنوج بحضارة المسلمين تأثراً واجباً بحكم الطبيعة البشرية، وبحكم التطور الحضاري حيث تتبع الحضارة المتخلفة الحضارة المتقدمة أو تقتبس بعض جوانبها وتجعلها تتفق وطبيعة سكانها وأرضها، ولذلك فلا عجب أن تتطور جميع الصناعات في السودان الغربي وتتقدم، لتعرفها على عينات من الصناعات الاسلامية المتقدمة عليها.

ومن بين الصناعات التي لاقت اهتماماً وتطويراً والتي كان لها علاقة بصناعة الأخشاب والتعدين (صناعة الأسلحة) والتي انحصرت بالقسي والنشاب والدبابيس والسيوف والرماح[(١١٣)]، وهذه الأسلحة طورت بشكل كبير بعد دخول الاسلام إلى المنطقة، نظراً لاعتناء حركة الجهاد الاسلامي بتطوير اسلحتها وخاصة صناعة النشابات والدبابيس التي كانوا يتخذونها من شجر الابنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة"[(١١٤)].

واستفاد الزنوج من الجلود في تطوير اسلحتهم حيث صنعوا من جملة أنواعها الجيدة دروعاً وخوذاً وخاصة (الدرق اللمطية) التي كانت خفيفة لينة لا ينفذها النشاب ولا يؤثر فيها السيف، وكانت من أحسن الترس المبسوطة والتي كانت تستر الفارس وفرسه، وهذه الدرق كانت تصنع من جلد حيوان يعيش في الصحراء ويدعى اللمط، وقد وصفه البكري بقوله: "وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكورها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من أربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها وهي التي طال قرناها لكبر سنها"[(١١٥)].

أما الزراعة، فهي جيدة حسب التقادير التي قدمتها السلطات الاستعمارية في القرن السابع عشر للميلاد. ويبدو أن النشاط الزراعي قبل الاسلام قام على تجميع أفراد القبيلة على شكل قرى متقاربة، وعلى العمل الجماعي وتوزيع الانتاج فيما بينهم، ولكن عندما انتشر الاسلام في هذه الديار، عمل على إدخال أنماط جديدة من الانتاج الزراعي[(١١٦)] حيث بدأ تطور جديد في العمل من أجل تحسين ظروف الزراعة والاستفادة من الأرض الجيدة واختيار الحبوب المناسبة للأرض المناسبة.

وقد جاء ذلك التطور بفعل الخبرة المكتسبة في العلاقات التي حدثت بين زنوج السودان الغربي والعرب المسلمين أثر انتشار الاسلام في المنطقة، وكانت الطريقة المتبعة لديهم في التسميد تعمل من الشجر، فعندما يحين موسم الأمطار يقوم المزارعون بقطع الأغصان من جذوعها، مستثنين من ذلك الأشجار النافعة، وعندما تجف تضرم فيها النار لكي تطهر الأتربة، لأن الرماد يعد العلاج الناجع في قتل الحشرات من الأرض، ثم يزودها بالسماد اللازم، وبعد هذه العملية تبدأ علمية قلب التربة، وتسهيلها ومن ثم زراعتها، وبذلك يحصلون على انتاج وافر من المحاصيل.

وعندما تستنزف طاقات الأرض، تترك لترتاح فترة من الزمن، وهذا ما كان معمولاً به في الأندلس ويسمى بالتبوير، ثم يبحثون عن غيرها.

---

(١٠٩) قداح، افريقية الغربية، ص ١٢٣؛ البكري، المغرب، ص ١٦٦.

(١١٠) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢؛ البكري، المغرب، ص ١٧١.

(١١١) طرخان، امبراطورية البرنو، ص ١٧٢-١٧٣.

(١١٢) Eriman, Some Sources, 37.

(١١٣) المقري، بداية الحكم المغربي، ص ٢٤.

(١١٤) الادريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص ١-٢٠.

(١١٥) البكري، المغرب، ص ١٧١.

(١١٦) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٥.

وكان من أهم المحاصيل في السودان الغربي الذرة، وعند دخول الاسلام واستقراره فيها، بدأت زراعة التنوع في المحاصيل والأشجار المثمرة.

وتركزت الزراعة بشكل عام على جانبي نهر النيجر والسنغال وفروعهما، وكانت الزراعة في هذه المنطقة مستقرة، وتعتمد على الجداول.

أما الزراعة في المناطق البعيدة عن الأنهار، فإنها تعتمد على مياه الأمطار، ولهذا كانت الزراعة غير مستقرة، فقد ازدهرت في بطون الوديان لاحتوائها على كميات كبيرة من المياه أكثر من غيرها.

ونظراً لتوفر محصول الذرة في هذه الديار أكثر من غيرها، فقد استخدمت طعاماً للإنسان وعلفاً للحيوان خاصة الخيول والجمال[117]، وزرع الزنوج القمح، لأن زراعته كانت قليلة ولم يكن يأكله إلا المترفون والملوك والأمراء بسبب قدرتهم وفي هذا يقول صاحب الاستبصار: "...وإنما يأكل عندهم القمح الملوك وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة"[118]. ومن الجدير بالذكر أنهم كانوا يستوردونه من المغرب، وخاصة من سجلماسة التي كانت تمتاز بالإنتاج الوفير والجيد منه.

وعرف الزنوج زراعة اللوبيا والقرع والبصل والثوم والباذنجان والكرنب، غير أن الباذنجان قليل عندهم، وهذه الخضار كانت تزرع في الأندلس، لأن مياه الأنهار صالحة لها، وتنمو الملوخية بغزارة بشكل تلقائي على ضفاف الأنهار[119].

واشتهرت المدن ـ خاصة، بزراعة البصل والقرع والبطيخ الذي كان محبوباً لديهم بشكل كبير، والقرع كان يستخدم في أغراض متعددة إلى جانب أكله، فقشوره يصنع منها الزنوج أواني لشرب المياه، أو لتناول الأطعمة السائلة، والزيوت المأخوذة من شجر القاريتي المار ذكره، لأنه إذا صب على الجلد يحترق، ولا يحمله إلا ظروف القرع، ويعد اناء القرع في مالي حتى اليوم الاناء الرئيسي الذي يستخدم لجميع الحاجات.

وأشار الادريسي إلى زراعته، وزراعة البصل والبطيخ في المدن فقال: "وأهل المدن يزرعون البصل والقرع والبطيخ ويعظم مدنهم كثيراً"[120].

أما أشجار الفواكه التي زرعت في أرض السودان الغربي، فكانت أشجار الجميز وهو كثير عندهم، وكانت تنمو عندهم أشجار ذوات ثمار طيبة، منها شجر يسمى بـ (تادموت) في داخل ثمره شيء شبيه بدقيق الحنطة، يدخر عندهم للأكل[121].

ووجد عندهم شجر يسمى بـ (زبيزور) ثمره أشبه بقرون الخروب وهو حلو لذيذ يشبه طعم الموز[122].

وعرف الزنوج في السودان الغربي أشجار النخيل والتمور غير أن زراعته انتشرت في القسم الشمالي من الصحراء، وذكر مؤلف الاستبصار ذلك: "وبلاد السودان لها بساتين كثيرة ونخيل كثير"[123] وزرعوا أشجار الحمضيات بين أشجار النخيل لحمايتها من عواقب التقلبات الجوية.

أما أهم المزروعات التي دخلت في مجال التصنيع فهي (زراعة القطن) التي كانت رائجة في السودان، نظرا لحاجة الأهالي إلى القطن لصنع الملابس منه لما امتازت به من النعومة والبرودة والبياض، والتي كانت وما تزال مفضلة عند عامة السكان لارتباطها بالعقيدة الاسلامية، فقد حبذ الاسلام هذا اللون على غيره من الألوان إلى جانب أنه يعكس أشعة الشمس، لذا ظل بارداً، والمنطقة حارة معظم أيام السنة.

ويبدو أن أشجار القطن كانت مشهورة في السودان الغربي نظراً لضخامتها وكبر حجمها حتى إنه كان بالإمكان الاستظلال بها.

ومن الملاحظ أن أهالي السودان الغربي لم يستخدموا المحراث في الزراعة أو الآلات المتطورة نسبيا، وإنما كانوا يعتمدون على أنفسهم، وكانت العائلة كلها تشترك في الزراعة، أما الأغنياء فكان لديهم الأعداد الكبيرة من العبيد، وكان العمل يتم بخصوص زراعة الحبوب[124].

وبعد، فقد ظهرت عظمة الاسلام الاجتماعية، بخلق التماسك الجماعي والإخاء بين الناس، والعمل على تنظيم حياتهم وتطويرها، كما أنه حرص على أن لا يحدث هزات في البنية الاجتماعية والاقتصادية، فقد ظلت معظم تقاليد الحياة الأسرية على صورتها العرفية لعدم تناقضها مع بساطة الاسلام، وظهرت فتاوي سميت بمسميات البيئة تسهل على الناس التعامل فيما بينهم.

ومع وجود التعصب للقبيلة والتكتلات العرقية والانتساب للام، إلا أن الاسلام خفف منها خاصة في المدينة لمخالطة السكان المسلمين وتأثرهم القوي بهم، خاصة في المجال التعبدي، وأصبح محور النشاط الأسري الأب بدلا من الأم، وعمل على تطوير أساليب الحياة في المجال الزراعي

(١١٧) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ١٤٧٥
الادريسي، النزهة، ص ٥.

(١١٨) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٢١٥
الادريسي، النزهة، ص ٥.

(١١٩) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٧٦.

(١٢٠) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ١٥
الوزاني، وصف افريقية، ص ١٥٤٤
ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.

(١٢١) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ١٤٧٩
ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.

(١٢٢) الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٦٥.

(١٢٣) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ٢١٥.

(١٢٤) الجيلالي، الدليل والبرهان، ص ١٦٣.



والحرفي لا على قلبها كما فعل الأوروبي، بما أدخله إلى مجال التكنولوجيا وإلى الصراعات الدولية الحادة، واستخدمت الآيات القرآنية في التعاويد والرقي والتعبد، فقد حلت عنده محل السحر والشعوذة خاصة وإنه في حد ذاته كان يقدس الحرف المكتوب.

وامتاز الدعاة المسلمون ببعد النظر فلم يحدث انهم اصطدموا في المحاكم أو مع العقائد المحلية اصطداما مباشراً، الأمر الذي خلق الألفة والتقارب بينهم، إلى جانب ذلك اتقنوا التكلم باللهجات المحلية ومعرفة العادات والطبائع فعرفوا ما ينفر وما يقرب، وساووا فيما بينهم، ولذا لم تكن عقدة اللون مطروحة في الفكر الاسلامي، مثلما طرحت في الفكر الأوروبي، الأمر الذي ساعدهم على الاندماج في المجتمع وأصبحوا جزءاً من خلاياه، إلى جانب الاحتكاك الدائم ما بين الافريقي والمسلم في المدن والقرى ومشاهدته للجانب التعبدي والسلوكي عنده، فهو الذي يراه يزاول الصلاة في الأوقات الخمسة، كما يرى فيه الصدق والأمانة ولين العريكة في التعامل، وما تمتعوا به من رخاء العيش.

وأفاضوا في الحديث عن أمجاد الحضارة الاسلامية في بلادهم، وكل هذا أرجعوه إلى الاسلام، الأمر الذي جعل له مذاقاً عند الزعماء والحكام من الأفارقة، ولفت نظرهم إلى أهمية العلماء والجاليات الاسلامية القوية المسيطرة على التعليم والتجارة مع دول المغرب العربي، لذلك كانت عرى العلاقة بين العقيدة الاسلامية والسياسة متينة لا انفصام لها، وبنفس القدر كانت العلاقة عضوية بين العلماء والسلاطين الوثنيين، ويتحكم بها الظروف والحاجات الآنية المعبرة عن أهداف الفريقين.

والملاحظ أن انتشار الاسلام في هذه الديار لم يكن منظماً، وإنما كان عفوياً يتم بالمخالطة فيما بين التجار والسكان عن طريق البيع والشراء، وما لذلك من مضامين قيمة خلقت جواً من الألفة والتأثر بالأفكار الاسلامية التي حمت الانسان من غائلة السبي والاسترقاق في الحروب، وأمنته على نفسه وأهله وماله.

وزادت هذه الأفكار ترسيخاً عن طريق المساجد والزوايا مما ساعد على اتساع رقعة انتشاره في جميع الأماكن، لا كما يردد المبشرون والمستشرقون ومن انساق وراءهم من مؤرخينا المحدثين، بان الاسلام لم يتجاوز جنوب الصحراء، وأنه وقف قباله الحافة الشمالية للغابة الاستوائية، ولم يفلح وراء الخط العاشر حتى اصبح ذلك الخط يعرف بخط المسلمين، وهذا غير صحيح، فإذا كانت العلة كما يزعمون أن الحاجز أمام المد الاسلامي الغابات الكثيفة، فهذا غير كاف، لإننا نلمس من البحث أن التجارة كانت من أهم وسائل الاتصال والاحتكاك، التي لا تخضع بالضرورة للقوافل الضخمة خاصة عند وصولها، لأن الفرد أو مجموعة من الأفراد القلائل يقومون بتسويقها، كما أنها لا تحتاج إلى الهيمنة السياسية، بل على العكس يحافظ الاسلام - كما ذكر - على الهوية الافريقية مع الاهتمام بالنقلة الحضارية التي تعمل على التناسق بين مدخلات الاسلام والثقافة المحلية، والدليل على وصول المسلمين إلى المنطقة الاستوائية، ما رواه ابو يوسف الورجلاني في كتابه البرهان عن وصوله إلى تلك الأماكن بقوله: "...وقد وصلت أنا بنفسي إلى قريب من خط الاستواء، وليس بيني وبينه إلا مسيرة شهر وكاد أن يستوي الليل والنهار، فالنهار الطويل ثلاث عشرة ساعة، والنهار القصير إحدى عشرة ساعة، ولياليها كذلك..."[١٢٥].

وأمد المسلمون أهالي السودان الغربي بالمعرفة المتاحة آنذاك، ومن ضمنها العربية التي لم تكن غاية في حد ذاتها، بل وسيلة لفهم الدين، وانتشرت فيما بعد الطرق الصوفية، ووصلت حركة التعليم والثقافة العربية الاسلامية إلى منزلة رفيعة، ولما تكونت الدول التي أصبح حكامها مسلمين أصبحت تخضع لنظم شرعية وثيقة كان لا بد من دراستها قبل تطبيقها، ومارسها المجتمع بكل فئاته، فالدول استخدمت العربية في مؤسساتها، والأمة استخدمت العربية في تعاملها وعباداتها، الأمر الذي جعل الاستعمار الأجنبي يواجه صعوبات كبيرة في استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، وإن نجح بعد زمن وصبر وعمل دؤوب في الاستبدال، إلا أن تأثير العربية بقي واضحاً إلى يومنا هذا في اللغة المحلية وفي مسميات المدن والحيوان والنبات، إلى جانب ممارستها في الصلوات الخمس كل يوم، مما أضفى عليها هالة من التقديس والتبجيل انعكست على من يتقنها، فنال حظوة في المجتمع.

نتائج البحث

نستخلص من البحث النتائج الآتية:

١) ان الاسلام قد تم انتشاره في هذه الديار بالوسائل السلمية، المتمثلة بالتعليم والسلوك عن طريق التدريس والتجارة وما صحبهما من صدق وأمانة.

٢) أدخل الدين مفاهيم قيمة إلى نفوس السكان وأفكارهم، فبعد أن كانوا يعيشون عراة، أخذوا يتسترون، ويتعاونون فيما بينهم، ويكونون وحدات اجتماعية فيصلها الشريعة الاسلامية، بعد أن كانوا مبعثرين متناحرين فيما بينهم.

---

[١٢٥] الورجلاني، الدليل والبرهان، ص ١٦٣.

٣) أوجد دخول التجار المسلمين إلى هذه الديار، طبقة رأسمالية منهم، تحكمت في الطرق والأسواق والسلع التجارية، الأمر الذي أدى إلى ربط المصالح وتقوية الصلات بينهم وبين الحكام، فأخذوا يعملون في بلادهم كمستشارين ومسيرين، ويسكنونهم في أحيانهم.

٤) نشط الاسلام الحركة التجارية، وطور الحركة الاقتصادية والثقافية والعمرانية والاجتماعية، فأوجد الاختلاط بين الناس عن طريق الزواج، والامتزاج في العادات والتقاليد، مما أثر في عادات وتقاليد السكان، وجعلها ذات مضمون انساني وأخلاقي، فلا يوجد في الفكر الاسلامي مجال للتمييز فجميعهم سواء بعكس الفكر الأوروبي الذي أبرز هذه الناحية.

ففي المجال الثقافي، أوجد جسوراً ومسالك لطلبة العلم والعلماء، حيث انشئت المدارس والجوامع التي تحولت إلى جامعات فيما بعد، قام بها علماء من أهل البلاد بعد تكوينهم في المراكز العلمية المغربية وفي الأزهر.

وفي المجال العمراني، كانت بيوتهم مبنية من الطين، ثم دخل الفن المعماري المغربي الأندلسي، فكانت لبنته المعمارية (جامع سنكري) الذي اشرف على بنائه المعماري ابو اسحاق ابراهيم الساحلي الغرناطي.

٥) وفي المجال الصناعي، سهل الغرب السوداني حركة صناعية هامة ومزدهرة، تمثلت في صناعة التعدين، وصناعة الأنسجة، وصناعة الجلود في مختلف المجالات.

٦) وفي المجال الزراعي، حفرت الآبار الارتوازية ـ إما لغرض السقي أو الشرب منها ـ على طرق القوافل، أو لإرواء المزروعات، ونشطت زراعة المزروعات التصنيعية كالقطن وما شابه.

وزاد الاهتمام بزراعة الأشجار المحلية التي ينسج من أليافها الثياب النادرة الوجود الغالية الثمن، ويؤخذ من بذورها الزيوت، والطلاء لدهن جدران البيوت.

وظهرت أساليب زراعية تماشت مع طابع معيشتهم المبسطة، كاستخدام الرماد في قتل الآفات، وفي زراعة المحاصيل، مثل القمح إلى جانب الذرة، وزراعة الحمضيات بين الأشجار الباسقة لحمايتها من تقلبات الطقس، إلى جانب زراعة الخضروات مثل القرع والبصل والبطيخ.

٧) تكمن أهمية التأثير الاسلامي في بقاء سكان البلاد إلى اليوم على الاسلام، وفي استخدام الكثير من مفردات اللغة العربية في لغاتهم المحلية، وفي تبجيل بعض المصطلحات إلى اليوم لما لها من مكانة روحية في نفوسهم، أمثال: الشيخ، والمؤدب، والمعلم.

The Influence of Islamic Civilization on the Western Sudan, from the Fifth to the Tenth Century A.H.

S. Abu-Diak*

ABSTRACT

This study traces the different ways in which Islam had spread in the Western Sudan, with special emphasis on trade since it brought together (consumer and merchant) into close contact. This close encounter revealed the special ethical values and moral virtues which Muslim merchants had possessed. These moral behaviours, in addition to religions commitments attracted the Western Africans to the religion and civilization of Islam. After their conversion to Islam, they began to develop their life style, working and settling down in farms, wearing clothes and covering the naked bodies according to the low of Islam, and regulating their lives in a civil manner.

These cultured changes led to the growth of new industries especially in agriculture, and the development of religious architecture. As a result of interaction between the Muslims and the Western Africans, Islam with its religious and cultural aspects had spread throughout this region from the fifth century A.H. up to the present time. Islam has remained a dominant factor in the spiritual and political lives of Western Sudan.

الهوامش

(١) ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي الموصلي النصيبي، ١٩٣٨، صورة الأرض، ط، ليدن، ص ١٩.

(٢) المرجع السابق، ط بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص ٢٤ـ٢٥، Triningham, J: Spence, Islam in West Africa. 1959, 10.

(٣) Divic, M: Lepays des zinds, Paris, 1985, 11.

(٤) كانوا يعظمون الثعابين، فكان لديهم ثعبان ذو عرف في مغارة يقدمون له الطعام والشراب ويعلقون على المغارة انفس الثياب، وإذا مات والٍ من ولاتهم، جمعوا كل من يصلح منهم للحكم، وذهبوا إلى الثعبان ليختار واحداً منهم. راجع، البكري، عبد الله، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، تحقيق دسلان، ١٨٥٧، مطبعة المثنى، بغداد، ص ١٧٥ـ١٧٦، عن العقائد، راجع، الوزاني، بن محمد الزياتي، وصف افريقية، تعريب، عبد الرحمن حميدة، ١٣٩٩هـ، مطبعة الرياض، ص ٥٣٩.

(٥) يمتازون بكثرة النسل، وكثيراً ما كانوا يقعون في شباك أعدائهم، الذين يأخذونهم إلى أسواق النخاسة في المغرب وأوروبا ليبيعهم، راجع، الادريسي، محمد بن عبد العزيز، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مطبعة بريل، ١٩٦٨م، ص ٦.

* Associate Professor, Department of History, Faculty of Arts, Yarmouk University, Irbid, Jordan. Received on 6/8/1995, and Accepted for Publication on 18/3/1996.

(٦) يروي ابن عذاري، طرفة عن سبي الحبيب بن عبد الرحمن الذي أتى به من المنطقة، أن جارتين من سبيه لكل واحد منهما ثدي واحد فقط. راجع، ابن عذاري، المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان، وبروفنسال، مطبعة دار الثقافة، بيروت، ج١، ص ٥١.

(٧) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، تحقيق هوداس، ١٩٦٤، باريس، ص ٢١.

(٨) بناها المرابطون - الطوارق، في القرن الخامس عشر للميلاد، راجع، الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٩.

(٩) كعت، محمود التنبكتي، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس، ١٩٦٤، مطبعة باريس، ص ١٢١؛ السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، ص ٥٧، ٦٢.

(١٠)ابن بطوطة، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، مطبعة دار التراث، ١٩٦٨م، بيروت، ص ٦٧٢، ٦٧٥؛ السعدي، تاريخ السودان، ص ٨.

(١١)نفسه، ص ٢٣-٢٤، كعت، الفتاش، ص ٤٨.

(١٢)الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٥، هامش رقم ١٢.

(١٣)بلغ المثقال السوداني، ٢٣٨ر٤ غراماً من الذهب، راجع، الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤١، هامش رقم ٤٥.

(١٤)السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، ص ٥٦، ٦٢.

(١٥)المرجع السابق، ص ٢٩، ٣٠، ٣٨، ٤٣.

(١٦)المرجع السابق، ص ٥٧.

(١٧)السعدي، ص ٦٢.

(١٨)لغة الفولي أو الفلدي أو الغلبي، هي اللغة التي تتحدث بها قبيلة الفلاني أو الفلانيون في غرب افريقيا، للمزيد، راجع، فودي، عبد الله، مسألة أصل الفلاتيين، مخطوط كنو رقم (GR.U.VOL:10)، جامعة بايرو؛ السعدي، تاريخ السودان، ص ٦٢.

(١٩)السعدي، تاريخ السودان، ص ٢٨، ٢٩.

(٢٠)المرجع السابق، ص ١١، كعت، الفتاش، ص ٨٨.

(٢١)المغربي، محمد، بداية الحكم المغربي في السودان، مطبعة دار الرشيد، بغداد، د.ت، ص ٨٥٠.

(٢٢)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٤.

(٢٣)السعدي، تاريخ السودان، ص ١٣.

(٢٤)دائرة المعارف الاسلامية، ج٧، ص ١٤٦.

(٢٥)يلبس سكان البلدة اللثام الاسود والأزرق، المصنوع من القطن، راجع، الوزان، وصف افريقية، ص ٥٣٧-٥٣٨.

(٢٦)كعت، الفتاش، ص ٨٨؛ السعدي، تاريخ السودان، ص ١٩.

(٢٧)قداح، نعيم، د.ت. افريقية الغربية في ظل الاسلام، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ص ١٤٣.

(٢٨)ابو دياك، صالح، د.ت. الوجيز في تاريخ المغرب والاندلس، من الفتح إلى بداية عصر المرابطين وملوك الطوائف، مطبعة لبنان، ص ٧٤؛ الكتاني، محمد المنتصر، ١٩٧٩، فاس عاصمة الادارسة، ورسائل أخرى، ط٢، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص ٨٢-٨٤.

(٢٩) Budget Meakin. 1991. The Land of Moors, New York, Themac, Comp. 243.

(٣٠)هكذا ضبط البغدادي (بالفتح ثم التشديد وضم الكاف وشين معجمه)، راجع، البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي البجاوي، ١٩٥٥، مطبعة دار المعرفة، بيروت، ج٣، ص ١٢٥١.

(٣١)مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامه، ١٩٧٩، ط١، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ص ٨٢، ٨٤.

(٣٢)ابن حوقل، صورة الأرض، مطبعة بيروت، ١٩٧٩، ص ٩٨-١٠١.

(٣٣)البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، ص ١٧٢، ١٧٨.

(٣٤)المرجع نفسه، ص ١٧٥، ١٧٨.

(٣٥)المرجع نفسه، ص ١٧٢ وما بعدها.

(٣٦)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٤.

(٣٧)القلقشندي، ابو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، د.ت. القاهرة، ج٥، ص ٢٩٨، ج٨، ص ١١٥.

(٣٨)طرخان، ابراهيم، ١٩٧٥، امبراطورية البرنو الاسلامية، القاهرة، ص ١١٢.

(٣٩)جاء فيها بعد البسملة والصلاة على النبي، الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأباعد، راجع، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص ١١٦.

(٤٠)ابو بكر، علي، ١٩٧٢، الثقافة العربية في نيجيريا من ١٧٥٠-١٩٦٠، ط١، نيجيريا، ص ١٤٧.

(٤١)نفس المرجع والصفحة.

(٤٢)العراقي، السر، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، انتشار اللغة العربية في بلاد غربي افريقية عبر التاريخ، مجلة دراسات افريقية، ص ١١٠.

(٤٣)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٣.

(٤٤) Jah, Omer. 1973. Sufismand the Nine Teenth Century Jihad Movements in the Western. Sudan: A Case of Al-Hajiummer Al-Futi's Philosophy of Jihad and its Basses (Ph.D.thesis), Montreal, 190.
Zebadia, A.K. 1973. The career and corres of Ahmed Al-Bakay of timbuctu: A historical study of this political and Religious Role from 1847 to 1860, London, 396.

(٤٥) S.F. Nadel: Op. Cit. 378, and Kenneth Little: the Mande of Sierraleane, London, 1912, 378.
لين، يوتي، قصص شعبية افريقية، تعريب، محمد كامل كمالي، د.ت. ط القاهرة.

(٤٦)ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، تاريخ ابن خلدون المسمى بـ (كتاب العبر، وديوان المبدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم ومن ذوي السلطان الأكبر)، مطبعة مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٩٧١، ج٦، ص ١٩٨-١٩٩.

(٤٧)ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩١؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ١٧٦ وما بعدها؛ زبادية، عبد القادر، مملكة سنغاي في عهد الاسيقيين، ط الجزائر، د.ت، ص ١٢٥،٢١٤.

(٤٨)ابن خلدون، العبر، مطبعة دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩، ج٧، ص ١١٩.

(٤٩)السليماني، محمد بن الأعرج، زبدة التاريخ وزهرة الشماريخ، ج١، مخطوطة مصورة، الخزانة العامة، رقم (٣٦٥٧)، الرباط، ص ٣٨٢.

(٥٠) Bovill, E.W.: The Golden Trade of the Moors, Oxford Univ. Press, 1968, 235.

(٥١)ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١١٨.

(٥٢)ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩١.

(٥٣)نفس المصدر والصفحة.

(٥٤)نفس المصدر والصفحة.
(٥٥)نفسه، ص ٦٥٩.
(٥٦)نفسه، ص ٦٦٠.
(٥٧)دهينة، عطا الله، ١٩٧٥، العلاقات التجارية بين المغرب والسودان عبر الصحراء، الأصالة، الجزائر، ص ٩٩-١٠٣.
(٥٨)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٥٩–٦٦٠؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٩.
(٥٩)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٣.
(٦٠)ابن خلدون، العبر، ج٧، ص ١٧-١٨.
(٦١)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٨٠-٦٨١.
(٦٢) Bovill, The Golden trade, 1968, 52.
(٦٣)الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٩.
(٦٤)عوض الله، امين، ١٩٨٤، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي، ندوة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، ص ٨١.
(٦٥)الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٠-٥٤١.
(٦٦) Bovill, 149.
(٦٧)الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٤–٢٥؛ الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٣٧؛ السعدي، تاريخ السودان، ص ١١.
(٦٨)العمري، شهاب الدين، أحمد بن يحيى الدمشقي، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط مصور بالخزانة الملكية، الرباط، (٢٦٤٢)، ورقة ١٩٣؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٥٨.
(٦٩)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٨–٦٧٩؛ العمري، المسالك، مخطوط، ورقة ١٩٣؛ البكري، المغرب، ص ١٦٢؛ الادريسي، النزهة، ص ٦٦.
(٧٠)العمري، المسالك، ورقة ١٩٠؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٧.
(٧١)نفسه، ص ٦٧٨؛ الوزان، وصف افريقية، ص ٥٢٦.
(٧٢)الادريسي، النزهة، ص ٦.
(٧٣)الوزان، وصف افريقية، ص ٥٣٧.
(٧٤)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٥؛ Bovill, 105.
(٧٥)ومما يذكر أن التبادل التجاري في غرب افريقيا وخاصة في المنطقة المشهورة بكثرة الذهب وهي الونقارا Wangara كان في العصور الأولى عن طريق ما يسمى بالتجارة الصامتة Silent trade حيث يأتي التجار من المغرب بسلعهم ويضعونها منتظمة في مكان معروف ثم يختفون، وعندئذ يخرج الأفارقة ويضعون بجوار كل سلعة نظيرها من الذهب ثم يختفون أيضاً، فيأتي بعد ذلك التجار، فإذا رضوا بقيمة الذهب الموضوع أخذوا وانصرفوا، وإلا تركوه واختفوا مرة ثانية، ثم يخرج الأفارقة فيزيدون من كمية الذهب، وهكذا تستمر العملية إلى أن يقتنع كل من الطرفين بها، راجع Bovill, 38.
(٧٦)الادريسي، النزهة، ص ٧٩.
(٧٧)ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٩٦.
(٧٨)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٨؛ البكري، المغرب، ص ١٥٨.
(٧٩)الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٤.
(٨٠)نفس المصدر والصفحة.
(٨١)البكري، المغرب، ص ١٥٨؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٣؛ زبادية، مملكة سنغاي، ص ٢٠٤.
(٨٢)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٨؛ البكري، المغرب، ص ١٥١.
(٨٣)زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٨-٢٠١.
(٨٤)السبتي، محمد بن القاسم الانصاري، اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ١٩٦٩، الرباط، ص ٤٥؛ ابو دياك، صالح، نظم الحكم والادارة في دولة بني مرين، رسالة ماجستير، فصل النظام المالي، ص ١٦٣–١٦٤؛ دهينة، الأصالة، ١٩٧٥، الجزائر، ص ٩٩.
(٨٥)الوزاني، وصف افريقية، ص ٥٤٠.
(٨٦)الاصطخري، ابو اسحاق ابراهيم، المسالك والممالك، تحقيق الحسيني، ١٩٦١، القاهرة، ص ٣٤-٣٥.
(٨٧)الادريسي، النزهة، ص ٨.
(٨٨)العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٣.
(٨٩)الحكيم، يوسف ابو الحسن علي الكومي، الدوحة الكشتبكة، في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، ١٩٦٠، مدريد، ص ٣٠.
(٩٠)العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٧.
(٩١)الحكيم، الدوحة، ص ٦٩.
(٩٢)الادريسي، النزهة، ص ٨.
(٩٣)الشحيرة: مأخوذة من الفعل (شحر) بمعنى صفى المعدن أو خلصه من خبثه، والشحيرة هي دقاق الأجر الأحمر الجديد، والملح مناصفه، وكانت تضاف إلى المعادن، وتحمى فتمتزج بالغريب المختلط بها وتخلص المعادن، راجع، الحكيم، الدوحة، ص ٢٣، هامش (٥).
(٩٤)الحكيم، الدوحة، ص ٧٠.
(٩٥)ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٨.
(٩٦)نفسه، ص ٦٧٨-٦٧٩.
(٩٧)الى جانب استخدام مادة النحاس في بناء الأضرحة، فقد استخدموها بصور أقنعة وكان من يقوم بهذا الدور يسمى عندهم جالي والجمع الجلا، ويدخل كل واحد منهم في جوف صورة... فيبدون بشكل مضحك، راجع، ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٧٠، كوردول، الفنون الافريقية، د.ت. ص ٦٨-٧١.
(٩٨)زبادية، د.ت. مملكة سنغاي، ص ١٩٣، قداح، نعيم، د.ت. افريقية الغربية، ص ٣٦.
(٩٩) المقصود بملوك زناته بسجلماسة هم حكام الدولة الصفرية الذين اتخذوا سجلماسة عاصمة دولتهم.
(١٠٠) البكري، المغرب، ص ١٧٩-١٨٠.
(١٠١) العمري، وصف افريقية والمغرب والاندلس أواسط القرن الثامن للهجرة، مقتطف من كتاب (مسالك الابصار في ممالك الامصار)، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، د.ت. تونس، ص ٢١.
(١٠٢) الادريسي، النزهة، ص ٣، ١٠-١١.
(١٠٣) البكري، المغرب، ص ١٧٥.
(١٠٤) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢.
(١٠٥) السعدي، تاريخ السودان، ١٨، كوردول، ص ٩٢.
(١٠٦) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢.
(١٠٧) الانصاري، شمس الدين ابو عبد الله، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، نشر هرافيتر، ١٩٢٣، لايبزج، ص ٢٤؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.
(١٠٨) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٩٧؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.

(١٠٩) قداح، افريقية الغربية، ص ١٢٣؛ البكري، المغرب، ص ١٦٦.

(١١٠) زبادية، مملكة سنغاي، ص ١٩٢؛ البكري، المغرب، ص ١٧١.

(١١١) طرخان، ابراهيم، امبراطورية البرنو، ص ١٧٢-١٧٣.

(١١٢) Eriman: Some Sources on Musicin Western Sudan from 1300-1700, *African Music Society Journal*, Vol. 5iii, 1973, 37.

(١١٣) المغربي، محمد، بداية الحكم المغربي، ص ٢٤.

(١١٤) الادريسي، النزهة، ط روما، ١٩٧٠، ج١، ص ١-٢٠.

(١١٥) البكري، المغرب، ص ١٧١.

(١١٦) الادريسي، النزهة، ص ٥.

(١١٧) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٧٥؛ الادريسي، ط بريل، ١٩٦٨، ص ٥.

(١١٨) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، ١٩٨٦، المغرب، الكويت، ص ٢١٥؛ الادريسي، النزهة، ص ٥.

(١١٩) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٧٦.

(١٢٠) الادريسي، النزهة، ص ٥؛ الوزان، وصف افريقية، ص ٥٤٤؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣.

(١٢١) العمري، المسالك، ج٢، ورقة ٤٧٩؛ ابن بطوطة، التحفة، ص ٦٦٣؛ البكري، المغرب، ص ١٦٣.

(١٢٢) الادريسي، النزهة، ص ٦٥.

(١٢٣) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ٢١٥.

(١٢٤) الجيلالي، عبد الرحمن، ١٩٧٨، ابو يعقوب الورجلاني وكتابه الدليل والبرهان، الأصالة، س٧، ع ٦٠، ٦١، الجزائر، ص ١٦٣.